بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
كلية الدعوة والاعلام بالرياض
دراسات عليا
قسم الدعوة والاحتساب

الابتلاء وأثره في الدعوة في العهد النبوي

بحث متمم لنيل درجة الماجستير

اعداد الطالب
عبدالله بن سعد بن أبراهيم الفالح

اشراف الدكتور
سعد أحمد محمد

١٤٠٤ — ١٤٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . وبعد .

فلقد أرسل الله جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بالدعوة الى توحيده سبحانه وتعالى ، وافراده وحده بالعبادة . قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(١) . وقال (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون)(٢) . وقال جل وعلا فى بيان وظيفتهم (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما)(٣) .

فمهمة الرسل ومن اتبعهم ليست بالمهمة السهلة الميسورة انها مهمة شاقة صعبة تحفها الأشواك وتعترضها العقبات وانحناءات النفس البشرية والتوائها وميولها وشهواتها وثقل الحق على مثل هذه النفوس إنها اخراج تلك النفوس من حمأة الشهوات والأهواء وقيود موروثات الآباء والأجداد من عادات وتقاليد ألفتها تلك النفوس حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من كيانها الى نفس زكية مستقيمة على نهج الله تخلع على بابه تلك العادات والتقاليد ، انها مهمة اخراج الناس

---

(١) سورة النحل - آية ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء - آية ٢٥ .
(٣) سورة النساء - آية ١٦٥ .

من الظلمات الى النور ، ومن النار الى الجنة . كما قال تعالى (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد)[1] . وقال (ياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار)[2] . فهى بذلك مهمة عظيمة وأمانة ثقيلة . كما قال الله عنها (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا)[3] . وقال (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا)[4] .

ما أعظمها من أمانة تلك التى تأبى حملها السموات والأرض والجبال ، وتشفق منها ويحملها الانسان . اذن لابد له من تربية ولابد له من اعداد حتى يصلب عوده ويقوى على حملها . ويؤدى حقوقها خير أداء والا فاقد الشىء لايعطيه فالمهمة العظمى لايحملها الا العظام .

قال المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

لذلك رأينا حياة الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم أشرف الخلق على الله عز وجل وأتباعهم حياة صعبة شاقة تتلاءم وتتناسب مع طبيعة وظيفتهم ومهمتهم العظيمة الثقيلة . فقد تعرضوا للابتلاء والفتن وكانت حياتهم محفوفة بالأشواك والعقبات حتى نقُوا ، وصُفوا ، ومُحصوا ، وخرجوا من هذه

---

(١) سورة ابراهيم . آية ١ .
(٢) سورة غافر . آية ٤١ .
(٣) سورة المزمل . آية ٥ .
(٤) سورة الأحزاب . آية ٧٢ .

الابتلاءات والفتن كما يخرج الذهب الابريز اذا أدخل النار فاستحقوا بذلك حمل الراية ومشعل الهداية واستلموا الأمانة وهم أهل لاستلامها عن هذا الموضوع وحوله سيكون - ان شاء الله تعالى - الحديث فى هذا البحث المتواضع الذى لا أخاله سيفى بالغرض المنشود والهدف المقصود ولكن مالا يدرك جله لا يترك كله ، وسبب اختيارى لهذا الموضوع ذلك أننى لا أكاد أقرأ سيرة نبى أو داعية الى الله عز وجل فى أى زمان وأى مكان الا وأجد السمة البارزة فى حياته الابتلاء والجهاد والكفاح . ولم أقرأ أو أسمع أن داعية من الدعاة كانت حياته مفروشة بالورود متكئا على أريكته يقول فيسمع لقوله ويعظ فيتعظ بموعظته وأكثر مايتكلف بضع كلمات يقولها فاذا هى واقع عملى يتمثل أمامه وهو مستريح البال مطمئن على دعوته ومستقبلها الزاهر آمن على نفسه وماله وأهله .

من خلال هذه القراءة رأيت أن هناك علاقة بين الايمان والابتلاء ، وبين الدعوة والابتلاء وأنه لابد أن يكون لذلك الابتلاء حكم ولابد له من أثر حميد على الدعوة والدعاة .

فقررت أن أبحث هذا الموضوع لأتعرف على هذه الحكم والآثار وليطمئن قلبى وما شجعنى أكثر على اختيار موضوع الابتلاء الحالة الحرجة التى يمر بها المسلمون اليوم فى شتى بقاع العالم من ابتلاء وفتن كقطع الليل المظلم من غزو عسكرى وغزو فكرى الحادى مادى يستهدف عقيدة المسلم وخلقه ليجتثها من الجذور ومن تداعى قوى الشرك والضلال على أمة الاسلام كتداعى الأكلة الى قصعتها وأصبح الاسلام كما قال الشاعر :

انى اتجهت الى الاسلام فى بلد تجده كالطير مقصوص جناحاه

تمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة كما يلي : ـ

١ ـ التمهيد وفيه مبحثان :

أ ـ تعريف الابتلاء والفتنة والرابط بينهما .

ب ـ الابتلاء سنة من سنن الله في الرسل وأتباعهم حيث ذكرت الآيات وأقوال المفسرين فيها والأحاديث التي تبين أن الابتلاء سنة قديمة جارية . وأنه لابد لهذه الأمة من الابتلاء ، وذكرت الآيات الدالة على ذلك .

٢ ـ الفصل الأول : الابتلاء للرسل والمؤمنين قبل البعثة وفيه خمسة مباحث .

المباحث الأربعة الأولى عرضت فيها لما لقيه أولوا العزم من الرسل من أذى ، وابتلاء وكيف واجهوا قومهم وبيّنت أنواع الابتلاء التي عرضت لهم صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى .

المبحث الخامس : وفيه قصة أصحاب الأخدود فهي مثال يوضح لنا مدى حقد أهل الباطل على أهل الحق .

وهذا الفصل في عمومه يبين لنا أن الابتلاء قديم في حياة الرسل والمؤمنين وأنه يصيب أفضل الخلق وأصلبهم دينا . وأنه كرامة للمؤمن وليس اهانة كما يرى ضعاف الايمان واليقين ولذلك كنت في أول كل مبحث أذكر فضائل ذلك النبي وكرامته عند الله ليزول هذا الشك .

الفصل الثاني : الابتلاء في العهد المكي ، وفيه مبحثان :

أ — المبحث الأول : مالقيه (صلى الله عليه وسلم) من قومه ، وقسمت الابتلاء في هذه الفترة الى خمسة أنواع .

١ — الحرب الدعائية ضده (صلى الله عليه وسلم) وضد دعوته .

٢ — المساومة وأنصاف الحلول .

٣ — الحرب الاقتصادية والمقاطعة الاجتماعية .

٤ — الأذى البدني .

٥ — محاولات الاغتيال .

ب — المبحث الثاني :

وفيه عرض لما لقيه الصحابة السابقون الى الاسلام (رضي الله عنهم من أذى وابتلاء ، وذكر بعض النماذج من هذا الابتلاء ثم بيّنت أن هذا المبحث مرتبط بالمبحث الذي قبله حيث أن الأذى الذي يصيب (النبي صلى الله عليه وسلم) أشد على الصحابة مما يصيبهم ومايصيبهم أشد عليه (صلى الله عليه وسلم) مما يصيبه .

الفصل الثالث : الابتلاء في العهد المدني . ويشمل تمهيد ، وستة مباحث كما يلي : —

المبحث الأول : تحويل القبلة .

المبحث الثاني : سرية عبد الله بن جحش .

ويمثل هذان المبحثان الابتلاء الفكري والعقائدي الذي شنته قريش واليهود والمنافقون ضد المسلمين .

المبحث الثالث : غزوة أحـــد وهى تمثل الغزو العسكرى .

المبحث الرابع : يوم الرجيـــــــــع .

المبحث الخامس : بئر معونـــــه .

وهذان المبحثان يوضحان مدى الحقد الذى تكنه الوثنية فـــــــى الجزيرة العربية للمسلمين ، وتمثل لنا الغدر والخيانة المنبثقة عن هـذا الحقـد .

المبحث السادس : غزوة الخنـــد ق .

وتمثل لنا مدى التكتل لقوى الشر عندما يكون العدو المشترك هـــو الاسلام .

وبينت أن هذه الغزوة هى أشد بلاء مر بالمسلمين ومن ثم بـدأت بعدها الفتوحـــات .

الفصل الرابع : أنواع الابتلاء وركائز الثابت عليه . ويشمل مبحثين :

المبحث الأول : أنواع الابتلاء . حيث جعلتها أربعة أنواع .

١ — تسلط الأعداء

٢ — المرض والفقـر .

٣ — النعـــم .

٤ — فتنـة الشـبهات والشهوات .

وبيّنت أن الأخير هو أشدها وأخطرها على المسلم . وأن هذه الأنواع تدخل فيها أنواع كثيرة جدا تختلف باختلاف الزمان والمكان .

المبحث الثاني : ركائز الثبات على الابتلاء وجعلتها ثمان ركائز هي كمايلي :

١ - تقوى الله عز وجل .

٢ - محبتـــه .

٣ - الصـــبر .

٤ - الصـــلاة .

٥ - الذكـــــر .

٦ - الفقه في الدين .

٧ - الزهـد في الدنيـا .

٨ - الجهاد في سبيل الله .

الفصل الخامس : حكم وآثار الابتلاء . وجعلت هذه الآثار في ستة مباحث :

المبحث الأول : تمحيص المؤمنين وتربيتهم .

المبحث الثاني : تحرير العبودية لله عز وجل .

المبحث الثالث : تخليص الصف المسلم .

المبحث الرابع : فتح مجالات للدعوة .

المبحث الخامس : تكوين القاعدة الصلبـــة .

المبحث السادس : رفع درجات المؤمنين وتكفير سنياتهم .

وفي نهاية هذا البحث أتوجـه الى الله عز وجل بالشكر الجزيل وعظـــيم الثناء الذي وفقني لاتمام هذا البحث . وأبتهل اليه عز وجل أن يتقبله على مافيه من نقص وزلل . أسأله سبحانه أن يتجاوز ويصفح عنه لئن لم يغفر لنا ربنـــــا ويرحمنـا لنكونن من الخاسـرين .

ثم أتوجه بالشكر الى فضيلة الدكتور/ سعد أحمد محمد المشرف على البحث الذى فتح لى صدره فكان لى — بعد الله — نعم المعين وأسأله سبحانه أن يجزيه عنى خير ما جزى [illegible] وأن يمده بالصحة والعافية ليواصل طريقه فى مساعدة طلاب العلم وتوجيههم إنه نعم المولى ونعم النصير .

كما أشكر سلفا اللجنة التى ستناقش بمشيئة الله تعالى هذا البحث وأسأل الله أن يوفقهم للحق ويلهمهم الصواب . وأعترف لهم بالنقص والزلل فى هذا البحث راجيا منهم أن ينبهونى عليه ويرشدونى الى الحق ، واننى أتقبل منهم كل نقد وكل توجيه وارشاد وكل ملاحظة على هذا البحث بصدر رحب ولا أعتبر ذلك منهم الا هدايا يتحفوننى بها . فرحم الله من أهدى الى عيوبى .

فجزاهم الله عنى خير الجزاء .

كما أشكر العاملين فى كلية الدعوة والاعلام — ادارة وأساتذة على مايقومون به من خدمة العلم وطلابه فجزاهم الله عن ذلك خيرا وأجمل لهم الأجر والمثوبة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيـــد :

وفيـه مبحثـــان :

١ - تعريف الابتـلاء والفتنـة .

٢ - الابتلاء سنة من سنن الله في الأنبياء وأتباعهم .

١ - تعريف الابتلاء :

ورد في القاموس المحيط (ابتليته اختبرته ، والرجل فأبلاني استخبرته فأخبرني وأخبرته كبلوته بلوا وبلاء ، والبلاء الغم كأنه يبلي الجسم والتكليف بلاء لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار، والبلاء يكون منحة ويكون محنة .

قال الراغب (وبلوته اختبرته ... ولذلك قيل ابتليت فلانا اذا اختبرته ثم قال اذا قيل ابتلى فلان كذا وأبلاه فذلك يتضمن أمرين - أحدهما تعرف حالة والوقوف على مايجهل في أمره ، والثاني ظهور جودته ورداءته وربما قصد الأمران ، فاذا قيل في الله تعالى (بلا كذا أو أبلاه فليس المراد الا ظهور جودته ورداءته دون التعرف بحاله والوقوف على مايجهل من أمره اذ كان الله علام الغيوب (٢) .

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي - جزء ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني بتصرف ص ٧٩ .

تعريف الفتنـــة :

فى لسان العرب (جماع معنى الفتنة الابتلاء والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب ، اذا أذبتها بالنار لتمييز الردىء من الجيد وفى الصحاح اذا أدخلته النار لتنظر ما جودته) .

وقد ذكر معانى عدة للفتنة ، ذكرت فى القرآن الكريم منها الإحراق بالنار الاختبار ، المحنة ، المال ، الأولاد ، الكفر ، اختلاف الناس بالآراء الى آخر ماذكر[1] .

وفى المعجم الوسيط (الفتنة الاختبار بالنار ، والابتلاء والاختبار[2]) . ونلاحظ من هذا أن الابتلاء والفتنة بالرغم من المعانى المتعددة للفتنة يلتقيان فى معنى واحد وهو الاختبار والامتحان . وهذا المعنى هو الذى يهمنا فى هذا البحث والذى سنسير عليه ان شاء الله .

---

(١) لسان العرب لابن منظور . مجلد ١٣ ص ٣١٧ .
(٢) المعجم الوسيط . جزء ٢ ص ٦٨٠ .

٢ - الابتلاء سنة من سنن الله في الرسل وأتباعهم :

ان المتتبع لسير الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وسير أصحاب الدعوات في القرآن والسنة والتاريخ يعلم علم اليقين أن الأنبياء وأتباعهم تعرضوا لشتّى أنواع الابتلاء وصنوف الأذى ، وأن حياتهم كلها جهاد وصراع مع الباطل فليست حياتهم حياة سهلة لينة مفروشة بالورود لكنها حياة شاقّة محفوفة بالأشواك . فلقد تعرض الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم أكرم الخلق على الله للتكذيب والاستهزاء والسخرية والاضطهاد ، فمنهم من أخرج من أهله وبلده . قال الله عن قوم شعيب: (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)[1] ، (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله)[2] ، وقال تعالى : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا)[3] ،وقال تعالى عن قوم نوح : (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه)[4] ، (ولقد استهزئ برسل من قبلك)[5] . ومنهم تعرض للضرب حتى سال الدم منه ، وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كأني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه يقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون) متفق عليه[6] .

---

(١) الأعراف آية ٨٨ .
(٢) الحج آية ٤٠ .
(٣) الأنعام آية ٣٤
(٤) هود - آية ٣٨ .
(٥) الأنعام - آية ١٠
(٦) رياض الصالحين - ص ٣١ .

ولقد وصل بهم الأذى الى القتل كما حدث لزكريا وابنه يحي عليهما السلام وغيرهم . قال تعالى : (لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون)[١] . ومن الأنبياء من أصيب بالمرض في جسمه الشريف سنوات طويلة ، كما حصل لأيوب عليه السلام ، فصبر واحتسب (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)[٢] . قال تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[٣] . قال ابن كثير رحمه الله - في هذه الآية (استفهام انكار ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ماعندهم من الايمان)[٤] . وقال فيها سيد قطب رحمه الله - (هذه الفتنة على الايمان أصل ثابت وسنة جارية في ميزان الله سبحانه وتعالى)[٥] . وقال كذلك الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمه الله - (ولكن سنته تعالى وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره والغنى والفقر وادالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والفعل ونحو ذلك من الفتن)[٦] .

---

(١) سورة المائدة - آية ٧٠ .
(٢) سورة الأنبياء - آية ٨٣ .
(٣) سورة العنكبوت - آية ١ ، ٣ .
(٤) تفسير ابن كثير - جزء ٣ ص ٤٠٤ .
(٥) في ظلال القرآن - جزء ٦ - ص ٣٨٧ .
(٦) تفسير ابن سعدى - ص ٦٦ .

قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب[1]) .

ويقول الشهيد سيد قطب في تعليقه على قوله تعالى : متى نصر الله ؟ . (ان سؤالهم متى نصر الله ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة ولن تكون الا محنة تفوق الوصف[2]) .

ويقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري في تفسيره لهذه الآية (فالزلزال عبارة عن كمال الضر والمحنة والبؤس والخوف والترويع حتى ضاق صبرهم . فقال رسولهم والمؤمنون معه متى نصر الله؟ أي جنحوا الى الله يستمطرون مدده ونصره[3]) .

قال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين[4]) . وقال تعالى : (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور[5]) .

يقول الشهيد سيد قطب حول هذه الآية (انها سنة العقائد والدعوات لا بد من بلاء ولا بد من أذى في الأموال والأنفس ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام

---

(١) سورة البقرة - آية ٢١٤ .
(٢) في ظلال القرآن - جزء ١ - ص ٣١٧ .
(٣) صفوة الآثار - جزء ٣ - ص ٣٢٥ .
(٤) سورة آل عمران - آية ١٤٢ .
(٥) سورة آل عمران - آية ١٨٦ .

انه الطريق الى الجنة ، وقد حفت بالمكاره بينما حفت النار بالشهوات[1]) .

ويقول تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم[2]) . (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين[3]) .

قال القرطبي : (المعنى لنمتحنكم لنعلم المجاهد والصابر علم معاينة حتى يقع الجزاء عليه[4] . وفي الحديث الصحيح (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلبا أشتد بلاؤه وان كان في دينه رقه ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وماعليه خطيئة) . رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[5] .

(وعن خباب بن الأرت - رضي الله - أنه يقول أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله فقعد وهو محمّر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم وعصب مايصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله

---

(١) في ظلال القرآن - جزء ٢ ص ١٨٠ .
(٢) محمد ٣١ .
(٣) سورة البقرة - آية ١٥٥ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن - جزء ٢ ص ١٧٣ .
(٥) سنن الترمذي - جزء ٤ - ص ٢٨ قال الألباني الحديث صحيح وله شاهد سلسلة الأحاديث الصحيحة . جزء ١ ص ٢٢٥ برقم ١٤٣ .

هـذا الأمر حتى يسـير الراكب من صنعـاء الى حضرموت مايخاف الا اللـه[١]) .

وعندما بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - وذهب هو وخديجة - رضى الله عنها - الى ورقة بن نوفل ، وكان له علم بأحـوال الرسل صلوات اللـه وسلامه عليهم - وسمع منه قال : هذا الناموس الذى أنزل على موسى - صلى الله عليه وسلم - ياليتنى فيها جذعا ياليتنى أكون حيا حين يخرجك قومـك قال - صلى الله عليه وسلم - أو مخرجى هم قال ورقة نعم لم يأت رجل قط بمـا جئت به الا عودى وأن يدركنى يومك أنصرك نصـرا مؤزرا[٢] .

وعندما سأل هرقل أبا سفيان عن النبى - صلى الله عليه وسلم - كـان فيما سأله هل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال : سجـال ندال عليه ويدال علينا الأخرى . قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة[٣] . فهذه هى سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة اللـه تبديلا[٤] .

---

(١) صحيح البخارى . جزء ص ٣٢١ .
(٢) عيون الأثر . جزء ١ ص ٨٥ .
(٣) زاد المعاد - جزء ٢ ص ٩٩ .
(٤) الفتـح . آية ٢٣ .

بسم اللـه الرحمن الرحيم

الفصـل الأول : الابتلاء للرسل والمؤمنين قبل البعثة المحمدية :

وفيه خمسة مباحث . نعرض فى الأربعة الأولى منها مالقيه أولـــو العزم من الرسل من ابتلاء فى ســـبيل اللـه عز وجلّ وهـــم : -

١ - نوح .

١ - ابراهـــيم .

٣ - موســـى .

٤ - عيســـى .

سنذكر انشاء الله تعالى بعض الأمثلة مما ورد فى القرآن الكريم لمـــا لقيـه أولئك من أذى من أقوامهم فى سبيل دعوتهم الى الله عزو وجلّ ولعظـم جهادهم وصبرهم ومانالهم من أذى وجـه الله نبيـه وخاتمهم محمدا - صلـــى الله عليهم وسلـــم - الى أن يقتدى بهم فى صبرهم .

قال تعالى : (فاصبر كما صبر أ ولو العزم من الرسل)[1].

والمبحث الخامس :

فيه عرض لما لقيه المؤمنون من ابتلاء بسبب ايمانهم ، ونكتفى بمثـال واحـد وهو قصـة أصحـاب الأخـدود .

---

(١) ســـورة الأحقاف - آية ٣٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - نوح عليه السلام :

قال تعالى : (ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين)[١] .

ونوح عليه السلام هو أول الرسل عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم التسليم ، كما ثبت ذلك فى حديث الشفاعة المتفق على صحته وفيه (.. فيأتون الى نوح عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل الى أهل الأرض[٢] ...) وهذا لايعارض أنه لم يسبقه أحد من الأنبياء مثل آدم وادريس وشيث ، فهؤلاء أنبياء ولم يكونوا رسلا فبذلك فالصحيح الذى عليه الأكثرون أن نوحا هو أول الرسل الى الأرض[٣] . وكان بينه وبين آدم عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الاسلام ، كما وردفى صحيح ابن حبان بين حديث أبى أمامه أن رجلا قال يارسول الله أنبى كان آدم ؟ قال نعم . قال فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال عشرة قرون[٤] .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : (قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام[٥] .

---

(١) سورة الأنعام - آية ٨٤ .
(٢) انظر الحديث بطوله فى البخارى ص ٢٣٠ - جزء ٢ .
(٣) انظر النبوة والأنبياء للشيخ محمد الصابونى ص ١٣٥ .
(٤) فتح البارى . جزء ٦ ص ٣٧٢ .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير . جزء ١ ص ٢٠١ .

وعاش نوح عليه السلام عمرا طويلا كما قال الله عنه (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون[١]) . عاش نوح عليه السلام هذه المدة الطويلة كلها جهاد وكفاح وصراع بينه وبين قومه الذين استولت الوثنية على عقولهم فأصبحوا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا

سلك نوح عليه السلام مع قومه شتى الوسائل فدعاهم ليلا ونهارا وسرا وجهارا أفرادا وجماعات ومع ذلك لا يجد منهم الا الصدود والعناد والاستكبار على الحق وعلى داعي الحق بل الاعراض الكلي عن دعوته وعدم تحمل حتى سماعها (وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا[٢]) . ووصفوه عليه السلام بالجنون (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر[٣]) .

ومرة يصفونه بالضلال وهو الهادى المهتدى (قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين[٤]) . وأحيانا يصفونه عليه السلام بكثرة الجدال وأنه أصبح عبئا ثقيلا عليهم (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين[٥]) .

ولقد كان قوم نوح لا يرون فى نوح عليه السلام أى مزية عليهم وليس له أى فضل فعلام يدعوهم الى الله اذن ؟ . بل كانوا يعيرونه بمن آمن معه ممن أنار

---

(١) سورة العنكبوت . آية ١٤ .
(٢) سورة نوح . آية ٧ .
(٣) سورة القمر . آية ٩ .
(٤) سورة الأعراف . آية ٦٠ .
(٥) سورة هود . آية ٣٢ .

الله قلوبهم بنور الايمان ، وهكذا أهل الباطل فى نظرتهم لأهل الحق (قال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين[1]) . بل لقد طلبوا اليه أن يطرد هؤلاء المؤمنين ليكون هناك بينهم وبينه مجال للمفاهمة (... وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون[2]). بل كانوا يسخرون منه عليه السلام فى كل عمل يعمله (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه[3]) .

وفى نهاية الأمر بعد أن أخرس الحق ألسنتهم ببرهانه الساطع وحجته الدامغة يتجه قوم نوح الى نوح عليه السلام بالتهديد - كما هى عادة أهل الباطل جميعا - (قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين[4]) .

ومع هذا العمر الطويل والجهد المرير لم يؤمن مع نوح عليه السلام الا نفر قليل كما قال تعالى : (وما آمن معه الا قليل[5]) . ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما (أنهم كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم[6]) . وهذا ابتلاء آخر لنوح عليه السلام ربما يكون أشد من أذى قومه ، فحلاوة النصر وحلاوة كثرة الأتباع تنسى الداعية ما أصابه فى سبيل دعوته لكن اذا كان الجهد متواصلا والعمر طويلا ومع ذلك فعدد الداخلين فى الدعوة قليل أيضا . فهذا مما قد يسبب القنوط أو اليأس بل والشك من أمر الدعوة لضعفاء الايمان - لكن

---

(١) سورة هود . آية ٢٧ .
(٢) سورة هود . آية ٢٩ .
(٣) سورة هود . آية ٣٨ .
(٤) سورة الشعراء . آية ١١٦ .
(٥) سورة هود . آية ٤٠ .
(٦) تفسير ابن كثير - جزء ٢ ص ٤٤٥ .

من رسخ ايمانه وقوى يقينه وثقته بدعوته كنوح -عليه السلام- فلن يتطرق اليه القنوط أو اليأس أو التراخي في أمر الدعوة ، فعلام القنوط وهو انما يعمل لله عز وجلّ لا لمصلحته ولا لحساب نفسه ، والله جل وعلا لا يريد منه الا العمل والاخلاص ، وأما النتيجة فهي بيده سبحانه وتعالى (ماعليك الا البلاغ) (ليس عليك هداهم) .

استمر نوح عليه السلام - يدعو هذه القلوب الصم التي أعرضت عن الداعي الناصح الأمين واتبعت من لم يزده ماله وولده الا خسارا حتى أوحى الله اليه (إنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)[1] .

عند ذلك التجأ الى ربه بهذا الدعاء (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا)[2] (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر)[3] . فكانت نهاية قوم نوح الهلاك والدمار بالطوفان الا من نجا الله ممن آمن منهم مع نوح -عليه السلام .

وما كان يصلح لهذه القلوب المتحجرة التي أصبحت حجر عثرة في طريق الدعوة - الا أن تطهر الأرض منهم . يقول الاستاذ سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية (فلقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج الى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى اليه القوم في زمانه . وأحيانا لا يصلح أي علاج

---

(١) سورة هود - آية ٣٦ .
(٢) سورة نوح آية ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة القمر - آية ١٠ .

آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين لأن وجودهم يجمد الدعوة الى الله نهائيا ويحول بينها وبين الوصول الى قلوب الآخرين[1]) .

---

(١) انظر الظلال ص ٣٠٦ - جزء ٨ .

بســـم الله الرحمن الرحيم

٢ - ابراهيم عليه السلام :

ثناء الله على ابراهيم عليه السلام - قال تعالى : (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين[١]) . (.. واتخذ الله ابراهيم خليلا[٢]) . (واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا[٣]) .

وقال صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح (ان ابراهيم خير البرية[٤]) . وفي الحديث الصحيح أيضا قوله - صلى الله عليه وسلم - (ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا[٥]) .

ومع هذا الفضل العظيم الذي اختص الله به نبيه وخليله ابراهيم - عليه السلام - فلقد ابتلي عليه السلام بشتى أنواع الابتلاء ، ابتلي ببيئته المشركة التي استحكمت فيها عبادة الأوثان والأصنام ، ويقوم مستمسكين بباطلهم لا تأخذهم في وثنيتهم لومة لائم ، ويحاكم طاغية مستبد هو النمرود بن كنعان ولقد قال عليه السلام لزوجته ساره (فاني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك[٦]) فكانت الأرض اذ ذاك تعج بالشرك والوثنية ، عبدوا النجوم والكواكب والأصنام والأعظم من هذه البيئة بيته الذي يعيش فيه كان بيت شرك فوالده آزر - كان بائعا للأصنام وعابدا لها وكذلك مرتزقا منها فكيف يواجه ابراهيم عليه السلام

---

(١) سورة النحل ، آية ١٢٠ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٢٥ .
(٣) سورة مريم ، آية ١٢٥ .
(٤) العبودية لابن تيميه ص ١٢٠ . (٥) العبودية لابن تيمية ص ١٢١ .
(٦) انظر الحديث بتمامه في مسلم بشرح النووي - جزء ١٥ ص ١٢٤ .

هذه البيئة بما فيها والده الذى ربما تكون مواجهته أشد من مواجهة قومه ،لكن ابراهيم عليه السلام صبر وثبت وتحمل فى سبيل الله ما أصابه من جهد وعناء وتهديد وسخرية من قومه ، بل من أعز الناس لديه وألصقهم به والده فكان أول مابدأ به دعوته والده آزر ، وأخذ يتدرج فى الدعوة فيبدأ باللين وبالكلام الحسن ويحاول أن يوضح له خطأ ماهو عليه من عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئا ، بدأ بخطاب والده بقوله (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) . هكذا استمر ابراهيم عليه السلام مع والده الى أن استعصى والده عليه وبدأ يلوح له بالتهديد ان لم ينته ويتوعده بالرجم (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا)[1]. وانه لابتلاء عظيم أن يواجه الابن أبا متعصبا لجاهليته قد استحكمت عليه وأغلقت كل مدخل للهداية فى نفسه . وان كانت جرت العادة أن الابن هو التابع للأب فان من الابتلاء للابن والأب معا أن يكون الابن هو الذى يطالب والده باتباعه لكن ابراهيم عليه السلام نجح فى هذا الابتلاء فعرض على والده أن يتبعه وأن الهداية فى اتباعه) ... فاتبعنى أهدك صراطا سويا) . بينما أخفق الوالد المتعصب لشركه وجاهليته (لئن لم تنته لأرجمتك واهجرنى مليا) .

ومن ثم يواجه ابراهيم قومه بالسخرية والاستهزاء من أصنامهم وتماثيلهم غير هياب ولا وجل مما سيناله منهم من أذى ، ويحدثنا القرآن عن ذلك . قال تعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين

---

(١) سورة مريم . آية (٤٠ ، ٤٨) .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهم . فقالوا : انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم . لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين (١) .

هكذا يواجه ابراهيم عليه السلام قومه يهدم فى نفوسهم عقيدة الشرك ويوضح لهم العقيدة الصحيحة فى الله عز وجل ، يواجههم بكل تحد وصمود فى وجه الباطل مع قوته يدحض حججهم الواهية بحجته الواضحة ، لكن الباطل لا يستسلم عندما يتضح له الحق ولا يذعن له ، فاذا سقطت حجته وخرس لسانه اتجه الى ما أمده الله به من قوة ليزهق بها الحق وليسكت بها صوت الداعى الى الحق - وأنى له ذلك والله من وراء الحق - لذلك اتجه قوم ابراهيم بعدما رأوا وضوح الحق الى قوتهم ، وقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء - آية (٥٠ - ٧٠) .
(٢) سورة الأنبياء - آية (٦٨) .

تقبل ابراهيم هذا التهديد الذى تقشعر منه الجلود بكل صبر وثبات فأنجاه الله منه (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) .

وهناك موقف آخر لابراهيم عليه السلام - وابتلاء من نوع آخر ذلك عندما تزوج من هاجر وولدت له اسماعيل عليه السلام بعدما مر عليه ثمان وستون عاما فأراد الله امتحانه فأمره بابعاد زوجه وولده الذى ماولد له الا بعد عمر طويل . فما كان من خليل الرحمن الا أن لبّى نداء ربه عز وجل فأخذهما وسار بهما من فلسطين الى مكة الجرداء التى لا ماء ولا نبات (بواد غير ذى ذرع[1]) وبعدما وضعهما هناك ولى مدبرا فلحقته زوجه وناديته فلم يلتفت اليهما فكررت النداء فلما رأته مدبرا لا يلوى على شىء عند ذلك علمت المقصود والمراد ، فقالت أالله أمرك بهذا . قال نعم . عندها رجعت الى وليدها ورضيت بأمر الله عز وجل وقالت اذن لا يضيعنا[2] . وحقت هذه الكلمة فلم يضيعهما الله .

ما أشد وقع هذا الابتلاء من يطيق سماعه فضلا أن يكون هو المنفذ له لكنه الايمان يفعل بالنفوس فعله ويصنعها صنعا آخر بحيث لا ترى الا بالله ولا تسمع الا بالله ولا تعمل الا لله . وفى ذات الله ان ابراهيم عليه السلام بشر وفيه عواطف البشر وغرائز البشر ، وفضلا عن ذلك كان عليه السلام لطيفا رحيما ، لكن الأمر أكبر من الغرائز وأعظم من العواطف انه أمر الله . فعلام يتردد ابراهيم اذن وهو المؤمن بربه المتوكل عليه ، وابتلى الله

---

(١) سورة ابراهيم . آية ٣٧ .
(٢) انظر الحديث بطوله فى صحيح البخارى - جزء ٢ ص ٢٣٦ .

ابراهيم عليه السلام بنوع آخر من الابتلاء أشد وقعا على النفس البشرية ، انه يأمره بذبح ابنه الوحيد الذى جاءه بعد أن بلغ منه الكبر ابنه الذى مايكاد يأنس به ويفرح به بعد ما أخذ يرافقه رحلة الحياة ، والأشد فى الأمر أنه هو الذى يتولى ذبحه بيده ومن يطبق ذلك ؟ . (ان هذا لهو البلاء المبين)[١] . فلما أسلم الأب والابن لأمر الله وأكب ابراهيم اسماعيل على وجهه ومابقى الا أن يسيل الدم ، وتغلبا على جميع العواطف والمشاعر ، وأسلما لله ربهما ونجحا فى الامتحان نجاحا باهرا جاءت رحمة الله وعنايته . فالله لايريد دم اسماعيل عليه السلام — انما هو الابتلاء والامتحان لابراهيم واسماعيل عليهما السلام . فلما نجحا فى الامتحان وتم كل شىء من الاستسلام لله رب العالمين)[٢] .

فدا الله اسماعيل بذبح عظيم ونجاه الله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)[٣] . قال تعالى : (فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين)[٤] .

---

(١) الصافات — آية ١٠٦ .
(٢) انظر الظلال — جزء ٧ ص ٦٥ طبعة كلام طيب حول هذه الآيات .
(٣) سورة الحج . آية ٣٧ .
(٤) سورة الصافات — آية ١٠١ — ١١٠ .

٣ — موسى عليه السلام :

ثناء الله على موسى عليه السلام — (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا)[١] . (وكلم الله موسى تكليما)[٢] . (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها) .

فموسى عليه السلام — كليم الله والمخلص له ومن صُنع على عين الله ، وله عنده وجاهة عانى أشد أنواع الابتلاء وجاهد فى الله حق جهاده ، ولقد عانى موسى الابتلاء من طرفين من الأعداء ومن الأتباع ، فمع الأعداء فقد واجه أكبر طاغية فى عصره الذى وصل به الطغيان الى إدعاء الألوهية واذلال البشرية خاصة بنى اسرائيل قوم موسى — عليه السلام . فأمره الله أن يواجه ذلك الطاغية ويعلن له التوحيد الخالص لله ويعرفه بربه . وقصة موسى مع فرعون ومحاجته له والجدال الذى حدث بين موسى وفرعون وردت كثيرا فى القرآن ولا نستطيع أن نتقصى هذه الآيات . فهذا مالا يتناسب مع حجم البحث ولكن مما يعرفه الجميع أن موسى عليه السلام واجه فرعون وأعلن أمامه ربوبية الله ووحدانيته وأوضح له الأدلة والآيات على صدقه ولكن فرعون تجبر وتكبر ، فلما وضح الحق أمامه وخشى أن يفتضح أمره التجأ الى القوة والبطش (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافرين الا فى ضلال)[٣] .

---

(١) سورة مريم — آية ٥١ .
(٢) سورة النساء — آية ١٦٤ .
(٣) سورة الأحزاب — آية ٦٩ .
(٤) سورة غافر — آية ٢٥ .

فلما لم يستطيع فرعون قتل موسى ـ عليه السلام ـ أخذ يهدد ويتوعد ويحذر قومه من موسى ودعوته وأخذ يلبس ثياب الناصح الأمين المشفق على قومه وعلى مصلحتهم ويستقبلهم (قال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد)[1].

وهذا أيضا ابتلاء من الله وامتحان للدعاة حينما يظهر الطاغية المفسد فى ثوب المصلح الأمين وحينما يبث دعاته فى الأرض للتحذير من الداعية والاصغاء اليه (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، ان هؤلاء الشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون)[2].

ثم يأتى الابتلاء الأكبر وهو دور المواجهة والتحدى حيث يقف موسى الأعزل من الأعوان والسلاح ـ الا من ربه ـ موقف الند لفرعون بما يملك مما آتاه الله من قوة من جند وسحرة وغيرهم. وهنا نجد موسى ـ عليه السلام ـ يستجيب لطلب فرعون فى هذا الموقف العظيم وهو أن يحدد له يوم للمعركة الفاصلة حيث يجمع فيها فرعون سحرته ليساحر بهم موسى ـ عليه السلام ـ وينتهز موسى عليه السلام هذه الفرصة ويحدد له يوم العيد (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى)[3]. وذلك ليعلن على الملأ توحيد لله وربوبيته وينصر الله موسى ـ عليه السلام ـ ولكن الامتحان والابتلاء لم ينته فيتجه فرعون مرة أخرى الى القوة والبطش بالسحرة الذين آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ (حيث تقطيع الأيدى والأرجل والصلب والتفنن فى شتى أنواع التعذيب للمؤمنين ، ولكن المهم فى هذا الموقف هو انتصار العقيدة على الباطل ، فما الأجساد الا فداء لها . واستمر

---

(١) سورة غافر : آية ٢٦ .
(٢) سورة الشعراء : آية ٥٣ — ٥٦ .
(٣) سورة طه : آية ٥٩ .

فرعون فى طغيانه وتعذيبه لبنى اسرائيل وصده عن موسى ودعوته حتى أهلكه الله بالغرق ونجا موسى ومن معه . وهنا يبدأ امتحان لموسى هو أكبر من امتحانه مع فرعون وأذى هو أشد من سابقه أذى الأتباع أذى بنى اسرائيل له عليه السلام وانه لأشد لأن أذى الأعداء يتحمله المرء لأنه لا يتوقع منهم الا ذاك . أما أذى الأتباع أتباع الدعوة الذين نجاهم الله بسببها ، وبسبب الداعية فانه أمر لا تطيقه الا النفوس العظيمة ، النفوس التى صنعت على عين الله . ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم — فى الحديث الصحيح (... يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر)[1] . قال تعالى : (واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين)[2] .

يقول الاستاذ سيد قطب عند تفسير هذه الآية (وايذاء بنى اسرائيل لموسى وهو منقذهم من فرعون وملئه ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ايذاء متطاول متعدد الألوان وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضنى عسير شاق)[3] . أ . هـ .

والقرآن الكريم ملىء بصور من ايذاء بنى اسرائيل لموسى عليه السلام فعندما كان موسى يحاول تخليصهم من فرعون الذى أذلهم وقتل أبناءهم واستحياء نساءهم كانوا يقولون له — عليه السلام — (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا)[4] .

---

(١) صحيح البخارى — جزء ٢ ص ٢٤٦ .
(٢) سورة الصف — آية ٥ .
(٣) فى ظلال القرآن — جزء ٨ ص ٨١ .
(٤) سورة الأعراف — آية ١٢٩ .

وماكادوا يتخلصون من عدوهم حتى قالوا له اجعل لنا الها كما لهم آلهـــة ثم الأشـــد من ذلك والأدهى والأمر أن السبعين المختارين من قوم موســـى يقولون له أرنا الله جهرة ، ومايلبث موسى عليه السلام — أن تغيب عنهم حـــتى عبدوا العجل . ومن صور الايذاء لموسى عليه السلام — عدم اجابة دعوته ، وان أجابوا فبكل تلكؤ وعناد يصور ذلك عدم استجابتهم له بذبح البقرة الا بعـــد المجادلـــة والتعنت بل ربما رفضوا أمره رفضا باتا وذلك عندما أمرهم بدخـــول الأرض المقدسة . قالوا بكل عناد (انا لن ندخلها مادامو فيها فأذهب أنـــت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون)[1] . فكان جزاؤهم أن حرمها الله عليهم وعاشـــوا فى التيه أربعين سنة ونال موسى مانالهم من عناء وجهد فى فترة الضياع فى التيـــه ومات — عليه السلام — فى تلك الفترة ولم يدخل الأرض المقدسة — فصلوات الله عليه . فلقد أوذى فى الله فصبر كما أخبر الصادق المصدوق — صلى الله عليه وســـلم .

ولذلك حـــذر الله هذه الأمة من أن تكون مثل بنى اسرائيل فى ايذائهـــا لنبيها . قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فـــبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها)[2] . وما أشد ايذاء بنى اسرائيل لموسى بـــل للأنبيـــاء جميعا . وما ذكرنا هنا الا القليل والا فصور الايذاء أكثر من أن تحصر وهذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

---

(١) سورة المائدة . آيـــة رقم ٢٤ .
(٢) سورة الأحزاب . آيـــة رقم ٦٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤ - عيسى عليه السلام :

(مالمسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة)[1] (قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أين ماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون)[2] . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه الا مريم وابنها)[3] . رواه مسلم .

ولادة عيسى ونبوته والابتلاء الذى أصابه :

ولد عيسى - عليه السلام - كما هو واضح من القرآن من غير أب ومن أم صالحة طاهرة نقية تقية عليها السلام - وكان فى ولادته - عليه السلام - من غير أب مطعن لأهل الباطل ، وكان فى هذا ابتلاء لمريم الصديقة ، وابتلاء لابنها - عليهما السلام - كما أن مريم - عليها السلام - تعرضت للتهديد بقتل ابنها الذى لم يمض على ولادته الا أيام من قبل ملك الشام . فهربت به أمه من الشام الى مصر حتى بلغ عمره - عليه السلام - اثنتى عشرة سنة[4] . فنأخذ من هذا أن الابتلاء والأذى قد أصاب عيسى عليه السلام منذ الأيام الأولى من ولادته من افتراء الباطل على أمه الصديقة الطاهرة ومن التهديد بقتله وهجرته من وطنه الى

(١) سورة المائدة - آية ٧٥ .
(٢) سورة مريم - آية ٣٠ ، ٣٤ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى - الجزء ١٥ ص ١٢٠ .
(٤) انظر القصة بكاملها فى الهداية والنهاية لابن كثير الجزء ٢ ص ٧٥ .

مصر حيث بقى هناك اثنتى عشرة سنة حتى هلك ذلك الملك وعاد الى وطنه ولما بلغ الثلاثين من عمره - عليه السلام - نزل عليه الوحى وهنا بدأ عيسى عليه السلام - يدعو الى الله ويصحح ماعليه بنو اسرائيل من انحرافات فى العقيدة حتى لا يكادون يؤمنون باليوم الآخر ولا ببعث ولا نشور ، ويبين لهم ماهم عليه من خرافات وأباطيل ، وبنوا اسرائيل قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وحرفوا شريعة ربهم ، وأحلّوا ماحرّم الله وحرّموا ما أحلّ الله لهم وفسد رجال الدين عندهم وانحرفوا عن شريعة موسى عليه السلام . واستغلوا ماعندهم من بقية العلم والشرع فى أكل أموال الناس بالباطل .

قام عيسى - عليه السلام - يدعو الى الله ويدعو الى نبذ ماهم عليه من خرافات وأباطيل وهنا بدأ الصراع بينه وبين بنى اسرائيل ، وبدأ الأذى يشتد والنزاع يحتدم ، وبدأ الابتلاء من الله لعيسى - عليه السلام . وأخذ عيسى عليه السلام يعلن عن نبوته ويطلب من بنى اسرائيل طاعته وتقوى الله عز وجل (واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[1]) . (ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[2]) .

فلم يجد منهم الا التعنت والاستكبار والصدود عن دعوته (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله . قال الحواريون نحن أنصار الله[3]) .

---

(١) سورة الصف . آية (٦) .
(٢) سورة آل عمران . آية (٥٠ ، ٥١) .
(٣) سورة آل عمران . آية (١٥٢) .

ولم يؤمن بعيسى - عليه السلام - الا القليل وذلك أن المادية قد تعمقت في نفوس بني اسرائيل ، وساد عندهم الفكر المادي بينما دعوة عيسى عليه السلام تحارب المادية وتدعو الى تطهير الروح وهجر الملاذ التي غطت على عقول بني اسرائيل ، ولذا اصطدمت دعوة عيسى عليه السلام - بمادية بني اسرائيل ، وكما يقول الدكتور أحمد شلبي (فلقد انتظروا - أي بنو اسرائيل - مسيحا يبسط سلطان اسرائيل على العالم أجمع ، ولكن خابت آمالهم[1]) أهـ.

ولذا فلقد اضطهد بنو اسرائيل عيسى - عليه السلام - وأذوه وصدوا الناس عن دعوته حتى أغرّوا به الحاكم الروماني ودسوا عليه الأباطيل والافتراءات وأنه يعارض الحكم الروماني حتى حكم عليه بالاعدام وأخذ الرومان يبحثون عنه لتنفيذ الحكم. وعلم عيسى - عليه السلام - بالمؤامرة فاختفى هو وتلامذته ، وكان من ضمن تلامذته رجل خائن منافق ، وهذا أشد ما تواجه به الدعوة والدعاة من ابتلاء يدعى يهوذا الاسخريوطي وهو الذي دلّ الرومان على مكانه ولكن الله الذي بيده مقادير كل شيء ألقى الشبه - شبه عيسى - عليه السلام - على ذلك المنافق فأخذه الرومان وصلبوه ورفع الله عز وجل - عيسى عليه السلام - اليه قال تعالى (وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه[2]) .

---

(١) مقارنة الأديان . أحمد شلبي - جزء ٢ ص ٤٢ .
(٢) انظر كتاب النبوة والأنبياء للشيخ محمد علي الصابوني . ص ٢٠٠ .
(٣) سورة النساء . آية ٥٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة أصحاب الأخدود :

قال تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ، وماانقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ، ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) .

قال ابن كثير (وقد اختلف المفسرون فى أهل هذه القصة من هم ؟ .

فعن على - رضى الله عنه - أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليهم علماؤهم ، فعمد الى حفر أخدود فقذف من أنكر عليه منهم واستمر بينهم تحليل المحارم الى اليوم . وعنه أنهم كانوا قوما باليمن أقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فغلب مؤمنوهم على كفارهم ثم اقتتلوا فغلب الكفار على المؤمنين فخدوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها . وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة وأحدهم حبشى ، وقال العوفى عن ابن عباس (قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود) قال ناس من بنى اسرائيل خدوا أخدودا فى الأرض ثم أوقدوا فيه نارا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء فعرضوا عليها وزعموا أنه دانيال وأصحابه[1]) . ثم ذكر عدة روايات للقصة منها مارواه الامام أحمد ومسلم والنسائى وكذلك مارواه الترمذى ومحمد بن اسحق بروايات مختلفة .

---

(١) تفسير بن كثير . جزء ٤ ص ٤٩٣ .

قال ابن كثير بعد ذكر هذه الروايات (وقد يحتمل أن ذلك وقع في العالم كثيرا)[1]. وسنختار هنا ماروا الامام مسلم - رحمة الله تعالى - في صحيحه عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان ملكا فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك اني قد كبرت فأبعث الى غلاما أعلمه السحر فبعث اليه غلاما يعلمه فكان في طريقه اذا سلك راهب فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه فكان اذ أتى الساحر مر بالراهب وقعد اليه . فاذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك الى الراهب فقال :اذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي واذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر. فبينما هو كذلك اذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس . فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجرا فقال اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ، وامضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغت من أمرك ما أرى وانك ستبتلى فان ابتليت فلا تدل على أحد وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ماهنالك أجمع ان أنت شفيتني . فقال اني لا أشفي أحدا انما يشفي الله فان أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس اليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك . قال ربي . قال ولك رب غيري قال ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام . فجاء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ماتبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل

---

(١) تفسير ابن كثير جزء ٤ ص ٤٩٥ .

فقال انى لا أشفى أحدا انما يشفى الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجاء بالراهب فقيل له أرجع عن دينك فدعاء بالمئشار فوضع المئشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المئشار فى مفرق رأسه فشق حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام وقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه الى نفر من أصحابه فقال اذهبوا الى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فاذا بلغتم ذروته فان رجع عن دينه والا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم أكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا . فجاء يمشى الى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك . قال كفانيهم الله . فدفعه الى نفر من أصحابه . فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور[1] فتوسطوا به البحر فان رجع عن دينه والا فأقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفيهم بماشئت فانكفأت بهم السفينة ففرقوا وجاء يمشى الى الملك فقال له الملك مافعل أصحابك . فقال كفانيهم الله فقال للملك انك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به . قال وماهو قال فأجمل الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل بسم الله رب الغلام ثم أرمنى فانك اذا فعلت ذلك قتلتنى فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانه ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال باسم رب الغلام ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات . فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام . فأتى الملك فقيل له أرأيت ماكنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد أمن الناس فأمر بالأخدود[2] ، وفى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران

---

(١) القرقور السفينة الصغيرة .
(٢) الأخدود الشق العظيم فى الأرض .

وقال من لم يرجع عن دينه فاحموه[1] فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أمة اصبري فانك على الحق[2].

في هذه القصة يتضح لنا مدى الحقد الذي يكنه أعداء الله للمؤمنين به عز وجل بدون أي ذنب أو جريمة الا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد . كما نلحظ صبر هذه الفئة المؤمنة التي ابتليت بهؤلاء الطغاة ، وسواء كانت هذه السورة (البروج) نزلت في فئة معينة وفي قصة بعينها أو أنها نزلت في أكثر من حادث . فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه القصة متكررة على اختلاف صورها وأشكالها وعصورها . فأهل الباطل لا يرضون عن أهل الحق أبدا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)[3]. فابتلاء الله للمؤمنين بتسلط الأعداء عليهم أمر لا مفر ولا محيص عنه ولكن العاقبة للمؤمنين في الدنيا أو في الآخرة (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[4]. ويبوء أعداؤهم بالخزي والعذاب يوم القيامة (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . أما المؤمنون فقد قال عنهم الله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم

---

(١) فاحموه وفي بعض النسخ فاقحموه ومعناه فاطرحوه .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي . جزء ١٨ — ص ١٣٣ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٢٠ .
(٤) سورة غافر : آية ٥١ .

جنـاب تجـرى من تحتهـا الأنهـار ذلك الفوز الكبـير) . وشتان بين عذاب البشر للبشـــر فى الدنيا وبين عذاب اللـه فى الآخـرة (ان بطـش ربـك لشـــديد) (... ولعذاب الآخـرة أشـد وأبقـى)[1].

---

(١) سورة طـه : آيـة ١٢٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني : الابتلاء في العهد المكي:

وفيه مبحثـــان :

أ - المبحث الأول : ما لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلـــم من قومـــه .

ب - المبحث الثاني : ما لقيه المسلمون الأوائل من أذى واضطهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

أ - المبحث الأول : مالقيه الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه :

نشأ صلى الله عليه وسلم بمكة بين قومه أربعين سنة - قبل البعثة - معززا مكرما بين أظهرهم حتى مايدعونه الا بالأمين وبالصادق على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان بعيدا عن أصنامهم وأعيادهم كارها لها بعيدا عن نواديهم التى تدار فيها الخمور ويفعلون فيها المحرمات ، لكنه لم يكن يتعرض لآلهتهم ولا يعيب عليهم . وأستمر الأمر على ذلك في السنوات الثلاث الأولى من البعثة - المرحلة السرية - فلما أوحى الله اليه قوله تعالى (فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) (١) .

وأعلن لهم الدعوة لم يقره قومه على ذلك ولم يتعرضوا له حتى عاب آلهتهم قال ابن اسحاق : فلما بادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه بالاسلام وصدع كما أمره الله لم يبعد قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته (٢) .

عند ذلك بدأ الابتلاء والأذى من المشركين لأشرف الخلق على الله - سبحانه وتعالى - ونالوا منه - صلى الله عليه وسلم - بالسخرية والاستهزاء فقالوا عنه أنه مجنون وقالوا ساحر وقالوا شاعر وصابئ ونالوه الأذى حتى في بدنه - صلى الله عليه وسلم - وتوعدوه بالقتل وأذوه في أصحابه وبالدعاية ضد دعوته وأنها تفرق بين المرء وزوجه والأب وابنه وغير ذلك من صور الابتلاء والأذى .

---

(١) الحجر ٩٤ .
(٢) سيرة بن هشام ، الجزء الأول ،ص ٢٧٦ .

وفي الحديث الذى رواه أحمد والترمذى عن أنس قال . قال رسول اللـــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد وأخفت في الله ومايخاف أحد) (١) . وسوف نعرض في هذا الفصل ـ انشاء الله ـ لبعض الأمثلة من صور هذا الابتلاء ونقسمها الى خمس صور :

(١) الحرب الدعائيـــــة .

(٢) الساومـــــــة .

(٣) الحرب الاقتصادية والمقاطعة الاجتماعية .

(٤) الأذى البدني .

(٥) محاولات الاغتيال .

١ ـ الحرب الدعائية ضده صلى الله عليه وسلم وضد دعوته :

أطلقت قريش لقب صابئ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى كل من آمن بدعوته كما أطلقوا عليه لقب ساحر يفرق بين المرء وزوجه وبين الأب وابنه ، وقالوا عنه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر ، وقالوا أنه مجنون وغير ذلك من الألقاب التى كانوا يصفون بها صفوة البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى : (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) (٢) . (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتوا صوبه بل هم قوم طاغون) (٣) .

---

(١) فتح البارى ، جـ ٧ ، ص ١٦٦ ، وقال الترمذى حسن صحيح .
(٢) الطور: ٢٩ ـ ٣٠ .
(٣) الذاريات : ٥٢ ـ ٥٣ .

وفي السيرة لابن هشام (ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع الى نفر من قريش وكان ذا شأن فيهم وقد حضر الموسم فقال : يا معشر قريش انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع قالوا نقول كاهن قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة [1] الكاهن ولا سجعه قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قال : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة وان أصله لعذق وان فرعه لجناه وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل وان أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدم الموسم — لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه وذكروا لهم أمره) أ.هـ [2] .

ولننظر مدى شدة وقع هذه الحرب ضد الدعوة ومدى شدة وقعها على الداعية نفسه انه يريد نشر دعوته وهؤلاء يحاولون تشويهها والصاق التهم بها ثم لننظر مدى اقتناع بعض كبار قريش بدعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — مع عدم اعترافهم بصدقها

---

(١) كلام خفي لا يفهم .
(٢) السيرة لابن هشام ، ص ٢٨٣ ، الجزء الأول .

فضلا عن الدخول فيها (وجحدوا بها وأستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) [١] . وقد كان بعضهم يوصي بعضا بعدم استماع القرآن بل بمقابلة سماعه باللغو والضجيج حتى لا يصل الى أسماع غيرهم (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) [٢] . ولا يمر به أحد من قريش أو يمر بهم في مجامعهم أو في الحرم الا كذبه وأذاه واستهزأ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن هشام (حدثني بعض أهل العلم أن أشد مالقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد الا كذبه وأذاه لا حر ولا عبد فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله فتدثر من شدة ما أصابه فأنزل الله ـ عز وجل ـ (يا أيها المدثر قم فأنذر) [٣] . حتى العبد الذى ماكان يجرؤ أن يجالس أحدا من قريش أو يكلمه قد تطاول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أوسط قريش نسبا وما كان للعبد أن يسخر أو يؤذى محمدا القرشي الهاشمي الا لما يرى من حب أسياده من قريش لذلك بل ان العبيد ليتقربون الى ساداتهم بالسخرية من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكذيبه وايذائه بأبي وأمي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولقد كانوا يسألونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعجزات ومالم يقدر عليه الا الله ـ عز وجل ـ وما ليس من مهمته ولا من طبيعة رسالته التى أرسل بها . وماذلك ليؤمنوا ولكن ليتخذوا من ذلك حربا دعائية يخدعون بها العامة من العرب وغيرهم من أنه لو كان رسولا حقا لنفذ ماطلب منه وما أشد وقع هذه الحرب على ضعاف العقول من

---

(١) النمل : ١٤ .
(٢) فصلت : ٢٦ .
(٣) المدثر : ١ - ٢ .

البشر ومن لا يدركون مهمة رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) (١) .

وكانوا يسخرون من القرآن ومن بعض الآيات التي يجدون فيها مطعنا لسوء فهمهم ولخبث نيتهم ومن ذلك مقالة أبي جهل وهو يهزأ برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان محمدا يزعم أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددا أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم (٢) .

وكذلك مقالته في شجرة الزقوم حيث يقول عنها (انها عجوة يثرب بالزبد والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها(٣) تزقما) (٤) .

كما كانوا يعلنون أنهم خير من محمد وصحبه وأنهم أرجح عقولا وأفهم وأكثر ادراكا منهم لعواقب الأمور فلو كان ما يدعوا اليه محمد وما عليه المؤمنون خيرا لكانوا أسبق منهم الى ذلك الخير (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) (٥) . وهذه لغة كل منحرف عن الحق يرى أنه بمكره وخداعه وضلاله أعقل من

---

(١) الاسراء : ٩٠ - ٩٣ .
(٢) السيرة لابن هشام ، ص ٣٣٦ .
(٣) نبتلعها ابتلاعا .
(٤) السيرة لابن هشام ، ص ٣٨٦ .
(٥) الأحقاف : ١١ .

أولئك المؤمنين المهتدين الى طريق الحق والرشاد .

كما أبتلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعمه الشقي أبي لهب فهو أول من بـــدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسخرية والاستهزاء في قوله عند ما أنذر عشيرتـــه الأقربين (تبا لك ألهذا جمعتنا) فأنزل الله تبت يدا أبي لهب وتب .

وكان من أشد أعداء الدعوة ومن أكثر الناس حماسا لصدها حتى كان يلاحق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمنى يعرض نفسه على القبائل ويبين دعوته وما أرسله اللـــه به فكان أبو لهب يحذرهم مما يقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصف ما جاء به بأنه بدعـــة وضلالة أى صدود أشد من هذا . ان الذى يحذر منه ـ كما ترى ذلك قبائل العرب ـ عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وله من الوجاهة والمكانة عند العرب ما تجعلهـــم يصدقونه ويكذبون غيره سيما أن الداعي هو ابن أخيه وهو أعلم به فلو كان خيرا ـ كمـــا يرون ـ لسبقهم عمه اليه فهو أعلم به منهم وبما يدعو اليه . الا من هدى الله . ومن كان يصد عن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيطان من شياطين قريش ذلكم هـــو النضر بن الحارث فكان كما يقول ابن هشام في السيرة ممن يؤذى رسول الله وينصـــب له العداوة وكان قد تعلم أحاديث الفرس ورستم واسفنديار فكان اذا جلس رسول اللـــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب الأمم قبلهم خلفـــه في مجلسه فقال أنا أحدثكم حديثا أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك الفـــــرس ورستم واسنفديار . وهو الذى نزل فيه قوله تعالى (اذا تتلى عليه آياتنا قـــــال أساطير الأولين) (١) .

---

(١) القلم : ١٥ ، أنظر السيرة لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ .

وما تركت قريش شيئا يمكنها أن تقوله للصد عن محمد وعن دعوته الا قالته حتى أعيتهم الحيل ووقعوا في التناقض مع أنفسهم حتى قالوا ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتعلم القرآن من بشر ويشيرون بذلك الى رجل أعجمي كان بياعا عند الصفا وربما كلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببعض الشئ حيث أنه لا يعرف العربية الا قدر يسير . قال تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) (١) .

وعندما أسرى بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا الى بيت المقدس وأصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر وجد كفار قريش في هذا مادتهم الدسمة لبلبلة أفكار ضعاف الايمان والتلبيس عليهم (فقالوا هذا والله الإمر البين) (٢) والله ان العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة وشهرا مقبلة أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع الى مكة . فأرتد كثير ممن كان أسلم(٣).

قال ابن اسحاق (... وكان في مسراه وماذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن أمن بالله وصدق وكان من أمر الله على يقين) (٤) .

قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولوشاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون) (٥) .

---

(١) النحل : ١٠٣ .
(٢) الامر بكسر الهمزة وسكون الميم أى الأمر العظيم الشنيع .
(٣) السيرة لابن هشام ، جـ ٢ ، ص ٤ .
(٤) " " " " " .
(٥) الأنعام : ١١٢ .

٢ - المساومة :

وهذا أشد ابتلاء يعرض للداعية ومنعطف خطير تزل فيه كثير من الأقدام غير الراسخة والثابتة ذلك عند ما يلبس أعداء الدعوة ومن يصدون عن الدعوة ومن يحاولون وأدها في المهد ذلك عند ما يلبسون ثياب الضأن من اللين عند ما يتوجهون للداعية بكل رفق ولين وبكل نصح وشفقة عليه وعلى مصلحته يعرضون عليه المساومات والمغريات بشتى أنواعها يعطونه كل شئ ويطلبون منه شيئا واحدا زهيدا في نظرهم يعطيهم دعوته ويسلم هو لدنياه ومصلحته الشخصية .

ذلك ماسبقت اليه قريش كل من جاء بعدها ممن ساوم الدعاة على دعواتهم فثبت من ثبته الله وزل من أستهواه هواه وضعفت نفسه أمام الماديات والمغريات . فقد جاء عتبة بن ربيعة الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به الهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من أبائهم فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . فقال - صلى الله عليه وسلم - قل يا أبا الوليد اسمع قال يا بن أخي ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه حتى اذا فرغ قال له - صلى الله عليه وسلم - أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : اسمع مني . قال : أفعل : فقرأ - صلى الله عليه وسلم -

(حم تنزيل من الرحمن الرحيم .....) حتى انتهى الى السجدة فسجدها ثم قال : أسمعت يا أبا الوليد . قال : سمعت . قال : (فأنت وذاك) أهـ[1].

ومساومة أخرى عرضتها قريش لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعرضها أعداء الدعوة في كل زمان ومكان هي انصاف الحلول . فقد عرض كفار قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعبد الهتهم سنة ويعبدون الهه سنة . فأنزل الله ـ عز وجل ـ سورة الكافرون وأمر رسوله أن يتبرأ منهم كلية [2] . انها المفاصلة التامة بين الشرك والتوحيد لا التقاء بينهما أليتة . قال تعالى مخبرا بما كان يتمناه كفار قريش من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ودوا لو تدهن فيدهنون) [3] .

قال ابن عباس لو ترخص لهم فيرخصون [4] .

وان هذه المساومات وأمثالها مزلق خطير من مزالق الدعاة . وابتلاء عظيم للداعية الى الله يتبين فيها صدقه وصلابته في دينه وتضحيته لعقيدته ودعوته أو تحامله على الدعوة والعيش على حسابها وان التنازل ولو في جزء يسير من الداعية يؤدي الى تسليم الدعوة نهائيا يقول تعالى مبينا تثبيته لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعصمته له من شر الأشرار وكيد الفجار [5] (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) [6] .

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ .
(٢) تفسير بن كثير ، جـ ٤ ، ص ٥٦٠ .
(٣) القلم : ٩ .
(٤) تفسير بن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٠٣ .
(٥) " " " ، جـ ٣ ، ص ٥٣ .
(٦) الاسراء : ٧٣ - ٧٥ .

٣ ـ الحرب الاقتصادية والمقاطعة الاجتماعية :

ولما رأت قريش أن الاسلام قد عز باسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب وأخذ يفشو في القبائل وأن المسلمين وجدوا لهم أرضا يأمنون فيها ـ الحبشة ـ وأن بني هاشم أبوا أن يسلموا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن حربهم الدعائية ضد الدعوة قد أخفقت في صد الناس عن الدخول فيها وأن المؤمنين ماضون في نشرها ، ولما فشلت العروض والمساومات وأنصاف الحلول فكروا في وسيلة أخرى لصد الناس حتى ينفضوا عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن دعوتهم فهداهم تفكيرهم الى خطة بيد و فيها اللؤم والخسة تلك هي سياسة التجويع إنهم في هذه الخطة ينطلقون من تصوراتهم هم ظانين أن أصحاب العقائد يعيشون لبطونهم أو لمصالحهم الشخصية وهي سياسة المنافقين من بعد في المدينة حيث يقولون فيما حكاه الله عنهم (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضون) (١) .

وسياسة الشيوعيين في حرمان المؤمنين من بطاقات التموين . لذا فقد أقر كفار قريش هذه الخطة لخنق الدعوة اقتصاديا فقد قرروا ـ كما يذكر ابن هشام ـ أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه علي بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وأجتمع بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب في شعبه وخرج منهم الشقي أبو لهب فظاهر كفار قريش على ماأقروه (٢) .

---

(١) سورة المنافقون : آية ٧ .
(٢) السيرة لابن هشام (بتصرف يسير) ، ص ٣٧٢ ، جـ ١ .

وأحكمت قريش خناقها الاقتصادي على أهل الشعب فاذا قدمت عير الى مكة وجاء الصحابة ليشتروا منها قام أبو لهب يحض التجار على شرائها بأغلى ثمن ويضمن لهم ربحهم فيرجع أحدهم الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس معه شيء (١) .

واستمر ذلك الحصار سنتين أو ثلاث حتى جهد و لا يصل اليهم شيء الا سرا مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش (٢) .

وفي الصحيح جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر حتى ان أحدهم ليضع كما تضع الشاه وكان فيهم سعد بن أبي وقاص روى أنه قال : لقد جعت حتى اني وطئت ذات ليلة علي شيء رطب فوضعته في فمي ولعته وما أدري ما هو الى الآن وفي رواية يونس أن سعد قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول فاذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ورضختها وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثا) (٣) .

انظر الى مدى الجهد الذي أصابهم ومع ذلك ظل المؤمنون صابرين محتسبين بل داعين الى الله - عز وجل - فكانوا يخرجون في الأشهر الحرم وفي مواسم الحج ليلقوا قبائل العرب ويبلغوهم الدعوة . واستمر الحصار سنتين أو ثلاثا حتى استيقظت عواطف بعض من أخذته الحمية لبني هاشم وبني عبد المطلب فقاموا بتمزيق الصحيفة وخاب ظن قريش في أن الحصار والاضطهاد والأذى يقتل الدعوة أو يثني الدعاة الصادقين عن عزمهم وتصميمهم في ابلاغ رسالة ربهم .

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .
(٢) " " " ، " ، ص ١٠٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

٤ ـ الأذى البدني :

وبالرغم من الحرب الدعائية التي شنتها قريش ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته الا أن شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسلم من الأذى خاصة بعد وفاة أبي طالب الذى كان له ـ بعد الله ـ نعم المعين والناصر كما كانت له خديجة ـ رضي الله عنها ـ نعم وزير الصدق عنده فكانت تخفف من آلامه منذ أن بعثه الله (كلا والله لا يخزيك الله أبدا . . .) وغيرها من الكلمات التي تمسح الأسى والحزن من القلب فقد واسته ـ رضي الله عنها بنفسها ومالها ومن حكمة الله ـ سبحانه وتعالى أن يموت أبو طالب وخديجة ـ رضي الله عنها ـ في عام واحد فكان في هذا ابتلاء له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حزن لموتهما حتى سمي ذلك العام بعام الحزن (١) . وقد وجد كفار قريش بعد موت أبي طالب متنفس لهم يكيدون به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونالوا منه مالم يكونوا ينالون من قبل وتجرأو عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مانالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب) (٢) .

قال السهيلي : (فصل فيما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه ذكر ابن اسحاق والواقدى والتيمي وابن عقبة وغيرهم في هذا الباب أمورا كثيرة تتقارب ألفاظها ومعانيها وبعضهم يزيد على بعض فمنها حثو سفائهم التراب على

---

(١) لم يكن شدة حزنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجل مصلحته الشخصية كلا فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعيش لها وانما شدة الحزن لأن الدعوة فقدت أعظم نصيرين لها أحدهما يدافع بجاهه والآخر بماله ويواسي بنفسه .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ص ٢٦ ، ج ٢ .

رأسه ، ومنها أنهم كانوا ينضدون الفرث والأفخاث والدماء على بابه ويطرحون رحم الشاة في برمته ومنها بصق أمية بن خلف في وجهه ووطء عقبة بي أبي معيط على رقبته وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ومنها أخذهم بمخنقه حين أجتمعوا له عند الحجر) [1] .

وفي صحيح البخارى (عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال بينما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام وعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أو أبي بن خلف [2] شعبة الشاك فرأيتهم قتلوا يوم بدر فألقوا في البئر غير أمية أو أبي تقطعت أوصاله فلم يلق في البئر) [3] .

وفي البخارى أيضا (عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي . قال : بينما النبي يصلي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبوبكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ـ الآية) [4] .

---

(١) الروض الأنف ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .
(٢) قال ابن كثير والصواب أمية بن خلف فانه الذى قتل يوم بدر . السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٤ .
(٣) صحيح البخارى ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

ولما يئس ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نصرة قريش ذهب الى الطائف يلتمس النصرة في ثقيف رجاء أن يقبلوا دين الله الذى أرسل به وقطع المسافة مشيا على قدميه الشريفين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنهم لم يقبلوا مما جاء به وأغروا به سفاءهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ـ صلى الله عليه وسلم ـ فترجع الى مكة .

٥ ـ محاولات الاغتيال :

بدأت محاولات الاغتيال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ عهد مبكر من الدعوة ـ بعد الجهر وعيب الآلهة ـ وقد بدأها الشقي أبو جهل فانه الذى قال : (اني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم) [1] . ولكن الله حفظ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم .

ومحاولة أخرى من كبار قريش عندما رأوا أن أبا طالب أبى خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة بن الوليد فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره وأتخذه ولدا فهو لك وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا فنقتله فانما هو رجل برجل .

قال أبو طالب والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه هذا والله لن يكون أبدا [2] .

---

(١) أنظر القصة كاملة في السيرة لابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٦٤ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٤٧٥ .

وكذلك عقد الصحيفة كان ضد المؤمنين وكل من يناصر محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني هاشم أو بني عبد المطلب مسلما كان أو كافرا ويأبى اسلامه لقريش لتقتله .

حتى كانت المؤامرة الكبرى وذلك بعد هجرة الكثير من الصحابة الى المدينة المنورة عند ذلك رأت قريش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد صار له شيعة وأنصار من غير بلدهم . فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اليهم وعرفوا أنه أجمع حربهم فأجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحضرهم الشيطان في هيئة شيخ جليل من أهل نجد فتشاوروا في حبسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديد أو اخراجه من بلده وكل ذلك والشيخ النجدي لا يرى لهم هذه الآراء حتى جاء أبو جهل ـ لعنه الله ـ برأيه وهو أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا ويعطى سيفا صارما ثم يعمدون اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فيتفرق دمه في القبائل ولا يستطيع بنو عبد مناف حربهم فيرضون بالدية . فأقرهم الشيطان على هذا الرأى وتفرقوا عليه (١) .

قال تعالي : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (٢) .

وهكذا دبرت كثير من المؤامرات لقتله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أفراد قريش وجماعتهم ولكن الله حماه ووقاه شر ذلك لما يريد به من اظهار دينه واعزاز أوليائه .

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .
(٢) سورة الأنفال : آية ٣٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ب - المبحث الثاني : ما لقيه المسلمون الأوائل من المشركين من أذى وفتنة :

ما ان أعلن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوته وجهر بها وأعلن لقريش أنهم على ضلال حتى أنفجرت مكة بمشاعر الغضب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى أتباعه . وزلزلوا الأرض من تحت أقدامهم وأعتبروهم صباة عصاة خارجين على دين الآباء والأجداد وعلى العادات والتقاليد الموروثة عنهم ، وأستحلوا دماءهم وحرماتهم في البلد الحرام وسخروا منهم وأستهزءوا بهم وأخذوا يتفكهون بالاستهزاء بهم - رضي الله عنهم - في مجالسهم ويتندرون بذلك فاذا رأوا أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يتغامزون ويقولون قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر ثم يصفرون ويصفقون) (١) .

قال تعالى : (ان الذين أجرموا كانوا من الذين أمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين) (٢) .

ومع هذا الاستهزاء والسخرية كانوا يعتدون على المستضعفين منهم بالضرب والحبس والتعذيب بالجوع والعطش والحبس في رمضاء مكة وسائر أنواع الأذى والفتنة (فمنهم من يفتن من شدة البلاء ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله) (٣) .

---

(١) فقه السيرة للغزالي ، ص ١١٠ .
(٢) سورة المطففين : آية ٢٩ - ٣٣ .
(٣) السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٤٩٢

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (ان كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله ؟ فيقول : نعم افتداء منهم بما يبلغون فن جهدهم) (١) .

وفي مثل هذا أنزل الله تعالي : (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (٢) .

وفي صحيح البخارى (عن خباب ـ رضي الله عنه ـ قال أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت الا تدعو الله . فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم وعصب مايصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت مايخاف الا الله) (٣) .

وبالاضافة الى الاستهزاء الشخصي والأذى البدني لأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فان كل ماسبق في مبحث مالقيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قومه من حرب دعائية ضد الدعوة وحصار اقتصادى وأذى شخصي للنبي ـ صلى الله

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٤٩٥ .
(٢) سورة النحل : آية ١٠٦ .
(٣) صحيح البخارى ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

عليه وسلم ـ كل هذا يعتبر أذى للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فان الحرب الدعائية ضد الدعوة وضد نبي الدعوة يعتبر حربا ضد هم أنفسهم فهي الدعوة التى آمنوا بها وصد قوا نبيها وأتبعوه صلى الله عليه وسلم ـ وهم يحيون بالدعوة ويحيون لها .

أما الحصار الاقتصادى والمقاطعة فقد شملتهم أيضا ونالوا من ذلك شدة وبلاء أما الأذى الذى أصاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شخصه فهو عليهم أشد من الأذى الذى يصيبهم فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند هم أعز من أموالهم وأنفسهم وأبنائهم ـ رضي الله عنهم ـ وهذا النوع من الأذى قد أصاب من له منعة ومن ليس له منعة .

كما أن الأذى الشخصي الذى يصيب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هو أيضا امتداد للأذى الذى يصيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو أشد فهو النبي الرحيم بأمته الذى يعز عليه مايشق عليهم . قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [1] . وهو نبيهم وقائد هم يراهم يعذبون ويفتنون في دينهم ومع ذلك لا يستطيع لهم نصرا ولا منعة لكنه كان يعطيهم أكثر من ذلك وأعز يبشرهم بالجنة ورضوان الله (صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة) [2] ويبث في نفوسهم عوامل الصبر والثبات ويعد هم بالنصر والتمكين في الأرض[3] .

فمن الممكن أن نجعل هذا البحث تابعا للبحث الأول وهو مالقيه النبي ـ صلى

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٨ .
(٢) السيرة لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٤٢ .
(٣) يشهد لذلك حديث خباب السابق في صـ ٤٨ .

الله عليه وسلم ـ من قومه ونجعله عنصرا سادسا بعنوان (أذى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أصحابه) . ولكن للتنظيم فقط نجعله مبحثا خاصا بما ناله الصحابة رضي الله عنهم . وبالجملة فان الأذى والابتلاء (١) قد أصاب جميع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ سواء المستضعفين منهم أو من كانت له عشيرة تمنعه . وان كان نصيب المستضعفين من الابتلاء والفتنة أشد لكن غيرهم لم يسلم من ذلك .

فقد كان أبو جهل يغرى بالمسلمين رجال قريش ان سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعه أنبه وأخزاه وقال تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفهن حلمك ولنفيلن (٢) رأيك ولنضعن شرفك وان كان تاجرا قال والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به لعنة الله وقبحه (٣) .

وفي هذا البحث سنعرض انشاء الله نماذج من الصحابة من الذين أوذوا واضطهدوا وصبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر الله أو استشهدوا راضين مرضيا عنهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (٤) . ومنهم :

١ ـ أبو بكر رضي الله عنه :

وهو أول الرجال اسلاما ومن أوذى في الله بالرغم من أن له عشيرة ومنعه في قريش وماذاك الا لأنه نذر نفسه وماله لله ـ عز وجل ـ ووقف مع رسول الله ـ صلى الله

---

(١) المقصود الأذى الشخصي أما الحرب ضد الدعوة والأذى الذى أصاب النبي والحصار ونحوه فكما ذكرت سابقا فانه أصاب الجميع .
(٢) أى نخطئه .
(٣) السيرة لابن كثير ، جـ ١ ، ص ٤٩٥ .
(٤) سورة البينة : آية ٨ .

عليه وسلم - منذ أن بعثه الله عز وجل ودافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - في كثير من المواقف التي يعرض فيها رجال قريش للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك أنه لما قام اليه رجل من قريش وأخذ بمجمع ردائه فقام أبو بكر وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله . فجذبوه بلحيته - رضي الله عنه - وصدعوا فرق رأسه (١) . ومن شدة الأذى الذي أصابه أستأذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة فأذن له وخرج فلقيه ابن الدغنه (٢) في الطريق فقال له : الى أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي وأذوني وضيقوا علي . قال : ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم فأجاره فرجع أبو بكر - رضي الله عنه - الى مكة ثم ان أبا بكر أرجع على ابن الدغنة جواره ثم عاد اليه الأذى فقد لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد الى الكعبة فحثا على رأسه ترابا فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاصي بن وائل فقال له أبو بكر أترى الى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك وأبوبكر يقول (أى رب أى رب ما أحلمك أى رب ما أحلمك أى رب ما أحلمك) (٣) .

٢ - ومنهم بلال رضي الله عنه :

وكان رضي الله عنه مملوكا لأمية بن خلف وكان نعم المملوك لسيده كما أن أمية كان يقدر ذلك لبلال ولكن ما أن علم باسلامه حتى هان عليه فصب عليه جام غضبه

---

(١) انظر القصة كاملة في السيرة لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣١١ .
(٢) هو ربيعة بن رفيع وهو سيد الأحابيش أحياء من القارة .
(٣) عن السيرة لابن هشام مختصرا ص ٤٩٥ - ٤٩٦ ، جـ ١ .

وتفنن في تعذيبه فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه لصبيان مكة يجرونه ويلعبون بـه وهو يقول رضي الله عنه أحد أحد . قال ابن اسحاق (فكان أمية يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد أنا كافر باللات والعزى) (١) .

وروى البلاذرى (٢) عن عمرو بن العاص قال مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت وهو يقول (أنا كافر باللات والعزى وأمية مغتاظ عليه فيزيده عذابا فيقبل عليه فيدغت في حلقه فيغشى عليه ثم يفيق) (٣) .

وروى أيضا عن مجاهد قال : جعلوا في عنق بلال حبلا وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة ـ يعنى جبليها ـ ففعلوا ذلك وهو يقول أحد أحد) (٤) .

قال البلاذرى : وروى أن بلالا قال : (أعطشوني يوما وليلة ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار) (٥) .

ومع هذا العذاب العظيم الذى نال بلالا ـ رضي الله عنه ـ فانه بقي مستمسكا

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، جـ ٢ ، ص ٤٧٦ .
(٢) هو الامام النسابة الراوية الثقة المحدث الثبت الأديب المتفنن الشاعر المجيد أبو الحسن أحمد بن يحيي بن جابر بن داود البغدادى البلاذرى . ولد في أواخر القرن الثاني من الهجرة ونشأ ببغداد وأخذ العلم عن كبار علمائها ورحل في طلب العلم الى كثير من البلدان ومن مؤلفاته أنساب الأشراف وفتوح البلدان وتوفى رحمة الله سنة تسع وسبعين ومائتين ، عن كتابه فتوح البلدان مقدمة رضوان محمد رضوان باختصار .
(٣) نفس المرجع .
(٤) " "
(٥) " "

بدينه صابراً محتسبا ولم يعط الكفار شيئا مما يحبون . روى ابن سعد عن عروه قال (كان بلال من المستضعفين من المؤمنين وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون) [1] . حتى ضاق به صدر أمية وضجر من تعذيبه الى أن اشتراه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأعتقه .

٣ ـ خباب بن الأرت رضي الله عنه :

وهو ممن سبي في الجاهلية فأشترته أم أنمار وكان حدادا وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يألفه قبل النبوة فلما بعث آمن به خباب ـ رضي الله عنه ـ فكان سادس ستة أسلموا . فلما علمت به أم أنمار عذبته فكانت تأخذ الحديدة المحماه فتضعها على رأسه .

وعن خباب رضي الله عنه أنه قال : (لقد رأيتني يوما وقد أوقدوا لي نارا ثم سلقوني فيها ثم وضع رجل رجله على صدري فما أتقيت الأرض الا بظهري ثم كشف عن ظهره فاذا هو قد برص) [2] .

وفي صحيح البخاري عن خباب قال : (أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد برده له في ظل الكعبة ولقد لقينا من المشركين شدة فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟) الحديث [3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، جـ ٢ ، ص ٤٧٦ .
(٢) " " " " " " " " ، ص ٤٧٩ .
(٣) راجع الحديث في صفحة (٤٨) .

٤ - ومنهم آل ياسر :

وهم عمار وأبوه وأمه سمية وأخوه عبد الله - رضي الله عنهم أجمعين - فهم ممن عذب في الله وأوذوا وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمر عليهم وهم يعذبون فيقول صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة .

فأما ياسر فمات تحت العذاب وأما سمية فانها أغلظت لأبي جهل فطعنها في قلبها فماتت وهي أول شهيدة في الاسلام وأما أخوه عبد الله فرمي فسقط (١) .

أما عمار فانه بقي في العذاب وروى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال : أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجردا في سراويل . قال : ونظرت الى ظهره فاذا فيه خبط فقلت ماهذا ؟ قال : هذا ماكانت قريش تعذبني في رمضاء مكة .

وقد شددوا العذاب على عمار رضي الله عنه حتى قال لهم - من شدة العذاب - ماأرادوا في اللات والعزى فجاء الى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي . فقال : ماوراءك . قال : شر يا رسول الله . فأخبره فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - كيف تجد قلبك . قال مطمئن بالايمان . فقال يا عمار ان عادوا فعد فأنزل الله : (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) (٢) .

٥ - ومنهم عامر بن فهيرة :

مولى أبي بكر الذى عذب في الله حتى مايدرى مايقول حتى اشتراه أبوبكر

---

(١) سبل الهدى والرشاد ، جـ ٢ ، ص ٤٨١ مختصرا .
(٢) سورة النحل : آية رقم ١٠٦ ، وانظر تفسير بن كثير جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .

رضي الله عنه [١] .

٦ - ومنهم أبو فكيهة :

واسمه أفلح بن يسار وكان عبدا لصفوان بن أمية فأسلم فأخذه أمية بن خلف فربط في رجله حبلا وأمر به فجر في الرمضاء فمر به جعل فقال أليس هذا ربك فقال الله ربي خلقني وخلقك وخلق هذا الجعل فغلظ عليه وجعل يخنقه ومعه أخوه أبي بن خلف وهو يقول زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره فأخرجه نصف النهار في شدة الحر مقيدا الى الرمضاء ووضع على بطنه صخرة فدلع لسانه فلم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات ثم أفاق فمر به أبو بكر - رضي الله عنه - فأشتراه وأعتقه [٢].

٧ - ومنهم زنيرة :

عذبت حتى عميت فقال أبو جهل ان اللات والعزى فعلتا بك ما ترين . وكان يقول الا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم محمد فلو كان ما أتى به خيرا وحقا ما سبقنا هؤلاء اليه أفسبقتنا زنيرة الى رشد وهي من ترون [٣] .

٨ - ومنهم جارية بني المؤمل بن حبيب :

وكان عمر - قبل اسلامه - يعذبها حتى يمل ثم يقول اني أعتذر اليك اني لم أتركك الا ملالة فتقول كذلك فعل الله بك [٤] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ، ص ٤٨٠
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .
(٤) السيرة لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٤١ .

ونلاحظ هنا أن أبا بكر ـ رضي الله عنه قد اشترى جماعة من المستضعفين ممن كان يعذب ويبتلى في دينه فمنهم بلال وأمه وعامر بن فهيرة وأبوفكيهة وجارية بني المؤمل وزنيرة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وقد أعترض أبو قحافة على أبي بكر في هذا فقال يا بني أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك فعلت ما فعلت فأعتقت رجالا جلداء يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ يا أبت انما أريد ما أريد لله ـ عز وجل ـ فأنزل الله ـ عز وجل ـ (فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى ...) الى آخر السورة (١) .

وغير هؤلاء كثير ممن أوذى في الله ـ عز وجل ـ وأبتلي في دينه فما ضعفوا وما أستكانوا وظلوا تحت العذاب صابرين محتسبين صامدين ، أما طواغيت الكفر والضلال معلنين بأفعالهم لا بأقوالهم ان العقيدة قوة لن تقهر وانها تعلو ولا يعلى عليها وأن المؤمن بعقيدته يحيى بها ولها وفي سبيلها وأن قوى الشر مهما عظمت لن تصده عنها ، فاما أن يحيى بها أو يموت لأجلها انها احدى الحسنيين في نظر الاسلام ، إما النصر وإما الشهادة فعلام يعط الدنية في دينة ويرى قوى الشرك والضلال من نفسه ومن عقيدته مايشتهون .

علام يرجع الى الشرك والوثنية بعد أن رأى النور والسعادة نور التوحيد وسعادة الايمان (قد أفترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين) (٢) .

---

(١) تفسير بن كثير جـ ٤ ، ص ٥٣٠ .
(٢) سورة الأعراف : آية ٨٩ .

والحقيقة ان كفار قريش قد سلكوا جميع السبل واستعملوا شتى الأساليب والوسائل لصد الدعوة ومنعها من الانتشار وتفننوا في تعذيب وأذى المؤمنين بها من حرب دعائية ضد الدعوة ورسول الدعوة الى مساومات وعروض الى أذى شخصي للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ وهذه الوسائل والأساليب هي التي استعملها جميع الطغاة وأعداء الاسلام الذين جاءوا من بعدهم على اختلاف أنواعها وأشكالها أما جوهرها ومضمونها وهدفها فلا اختلاف فيه واننا لنشاهد ونسمع اليوم عن أعداء الاسلام وعن طغاة القرن العشرين ماهو شبيه كل الشبه بما استخدمته قريش قبل أربعة عشر قرناً فنسمع عن الضجة الاعلامية للتى يقصد من ورائها تشويه الاسلام ووصف المؤمنين بأبشع الأوصاف والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، واتباع سياسات التجويع والتعذيب والتنكيل بالمسلمين بل القتل والابادة الفردية والجماعية في كثير من بلدان العالم التى يوجد بها أقليات مسلمة بل في كثير من بلدان المسلمين التي يحكمها طغاة لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والحقيقة أن كل من جاء بعد قريش ممن يصدون عن دين الله هم عيال على قريش في أساليبهم وطرقهم لمحاربة الدعوة الى الله عز وجل (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) (١) .

---

(١) سورة الصف : آية ٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

—

الفصل الثالث : الابتلاء في العهد المدني

ويشتمل على تمهيد وستة مباحث كما يلي :-

١ - المبحث الأول : تحويل القبلة .

٢ - المبحث الثاني : سرية عبد الله بن جحش.

٣ - المبحث الثالث : غزوة أحد .

٤ - المبحث الرابع : يوم الرجيع .

٥ - المبحث الخامس : بئر معونة .

٦ - المبحث السادس : غزوة الخندق .

التمهيد :

بعد هجرة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وتكوين الدولة الاسلامية . أمن المسلمون خاصة المستضعفين منهم ووجدوا لهم دولة تحميهم وترعى مصالحهم لكن الصراع مع الباطل أستمر غير أنه تغير في شكله وحجمه فقد كان الصراع في مكة صراع الفرد المستضعف الذى لا يملك حولا ولا طولا للقبيلة القوية ذات المنعة والشوكة . بينما أصبح في المدينة صراع الدولة للدولة وصراع الند للند ، ففي هذا حماية للضعيف وأمن له على نفسه ودينه وحماية لماله ، وقد واجه المسلمون في المدينة -قبل الفتح- أربع جبهات شنت الحرب والعداء عليهم .

الجبهة الأولى : جبهة قريش :

فالصراع معهم استمر ، فقريش لم يقر لها قرار وهي تنظر الى المسلمين الذين عذبوا بأيديهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم يشكلون دولة تهدد كيانهم وأمنهم فشنت الحرب ضدهم وألبت عليهم القبائل ، وأستمرت على حربهم طيلة السنوات الست من الهجرة الى أن تم بينهم صلح الحديبية ، فقد غزتهم في سنتين مرتين .

الجبهة الثانية : اليهود :

فانهم أضمروا عداوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولم يألوا جهدا في المكر والخداع ومحاولات الاغتيال له -صلى الله عليه وسلم- ولا صحابه ، فهم مع مساندة المنافقين قد أشاعوا الحرب النفسية والبلبلة الفكرية بين المسلمين وهو ما نسميه في عصرنا هذا الغزو الفكرى . فهم أهل كتاب وهم في نظر الوثنيين من العرب أهل

علم ودراية بأحوال الرسل والأديان . لذا فقد أرسلت قريش في بداية البعثة النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط يسألانهم عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١) وقد سألوهم أيضا هل دينهم خير أم دين محمد ؟ فقالوا بل دينكم (٢) ، وما تركوا مشبهة الا حاولوا الصاقها بالمسلمين وما وجدوا مدخلا يطعنون به في الاسلام الا دخلوه .

من ذلك ما حدث عنهم عند تحويل القبلة وما نتج عنها من كثرة تساؤلاتهم وتعنتهم فيها علهم يجدون مطعنا أو شبهة يلصقونها بالاسلام ورسول الاسلام . مع نقضهم للعهود التي يبرمها المسلمون معهم ويأمنون في ظلها من شرهم وأذاهم يفاجؤن بنقضها ، وما أدل على ذلك من نقض بني قريظه العهد في أحلك الظروف في غزوة الخندق . فالصراع معهم صراع فكر في الدرجة الأولى ، كما أنه صراع عسكرى أيضا في الدرجة الثانية .

الجبهة الثالثة : جبهة النفاق والمنافقين :

ذلك العدو المستتر الذى يعيش بين المسلمين ويتعامل معهم وهو عدو في ثوب صديق . كافر في ثوب مؤمن . وقد وجد المسلمون من المنافقين أنواعا كثيرة من الأذى ، فكانوا يخذلونهم في المعارك ، ففي معركة أحد رجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش . وكانوا يثيرون الشبه والصاق التهم بالصادقين من المؤمنين ولا يتركون فرصة تمر عليهم في التنفيس عن حقدهم والتكشير عن نفاقهم الا أستغلوها ،

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ .
(٢) وذلك عندما كان اليهود يحزبون الأحزاب ويجمعون القبائل لحرب المسلمين .

وذلك ما حدث في غزوة الخندق وغيرها من الوقائع بل كانوا يؤذون النبي في شخصه وفي أهل بيته كما حصل في حادثة الأفك وأشاعة المنافقين لها ، وكانوا يدبرون المؤامرات ضد المسلمين خفية ويتعاونون مع اخوانهم اليهود في ذلك ، وقد وصل بهم الأمر الى أن بنوا مسجد الضرار الذى قال الله فيه (والذين أتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) (١) .

كما أنهم حاولوا قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - واخراجه من المدينة (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٢) .

أما محاولة قتله - صلى الله عليه وسلم - فذلك عند مرجعه من تبوك عند العقبة حيث كمن له ثلاثة نفر ليطرحوه - صلى الله عليه وسلم - من فوق راحلته .

والحقيقة أن كثيرا من الويلات التي جرت على المسلمين في هذا العصر كان سببها المنافقون ، فهم يكيدون للاسلام في السر وهم يعيشون بين المسلمين ، ومن بني جلدتهم ويتكلمون بالسنتهم لكنهم دعاة على أبواب جهنم والسلاح مع هؤلاء سلاح الصبر ، والتتبع لهم والتفطن لكائدهم والحذر منهم .

الجبهة الرابعة : جبهة الأعراب المقيمين حول المدينة :

وهؤلاء لا يهمهم أمر قريش ولا أمر المسلمين في قليل ولا كثير انما هم مرتزقة

---

(١) سورة التوبة : آية ١٠٧ .
(٢) سورة المنافقون : آية ٨ .

يسعون وراء الغنيمة عن طريق السلب والنهب، ومتى وجدوا فرصة للاغارة على المدينة لنهب مافيها أغاروا،وهؤلاء أيضا شكلوا خطرا على المسلمين . وأستنفذوا شيئا من جهودهم التي كان من الممكن صرفها في جهاد قريش أو مجادلة اليهود والمنافقين وقد أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة . فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طلبه فلم يدركه . وهذه تسمى غزوة بدر الأولى (١) . وهؤلاء الاعراب بالرغم أنه لا يهمهم أمر قريش ولا أمر المسلمين فهم مع من غلب لكنهم بشركهم ووثنيتهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وربما تحالفوا مع قريش لنيل بعض الغنائم والصراع معهم عسكرى فقط .

هذه أهم الجبهات التى واجهت المسلمين في المدينة قبل الفتح ، والملامح العامة لها وكيفية مواجهتها .

وسنعرض في هذا الفصل انشاء الله تعالى بعض الوقائع بقدر مايسعه البحث التى أبتلي فيها المؤمنون ولن نتتبع سرد الأحداث والتفصيل في الوقائع ، أنما نكتفى بالاشارة الى الحدث وأخذ مجال الابتلاء فيه فقط . أما من أراد التفصيل فعليه الرجوع الى كتب السيرة ، فسنعرض ان شاء الله لقضية صرف القبلة وما أرجفت به يهود مما كان فيه ابتلاء وتمحيص للمؤمنين وسرية عبد الله بن جحش وذلك لما حدث فيها من بلبلة للأفكار . فحادثة صرف القبلة وسرية عبد الله بن جحش مثال لما أبتلى به المؤمنون في المدينة بما يعرف اليوم باسم الغزو الفكرى ، أما في مجال الغزو العسكرى فسنعرض غزوة أحد وغزوة الخندق ، أما في مجال الغدر والخيانة من الأعراب فيمثلها يوم الرجيع وبئر معونة .

---

(١) السيرة لابن هشام ،جـ ٢ ،ص ٢٣٨ .

المبحث الأول : تحويل القبلة :

مكث ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المدينة ستة عشر شهرا يستقبل بيت المقدس ، ثم أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتحول الى الكعبة . قال تعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) (١) ، وكان في هذا مادة دسمة لليهود لبث أفكارهم لزعزعة أفكار المؤمنين فمن شدة هذه الحرب الكلامية التي شنتها يهود ضد المؤمنين ارتد بعض ضعاف الايمان وكان في هذا ابتلاء واختبار وتمحيص للمؤمنين الصادقين الذين يتبعون الرسول عن يقين وصدق ممن ينقلب على عقبيه . قال تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله) (٢) .

فمن هذه الأفكار أنهم قالوا : ما الذي صرف محمدا عن قبلتنا ؟ أقبلتنا هي الحق أم الكعبة ؟ ان كانت قبلتنا هي الحق فلم ينصرف عنها ؟ وان كانت الكعبة هي الحق وماعداها باطل فما الذي جعله يبقى على الباطل ستة عشر شهرا ؟ ان هذا لدليل على أنه مزعزع غير صادق (٣) . قال تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) (٤) . ثم أتوا بشبهة أخرى وهي ان صلاة من مات قبل تحويل

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٤ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٤٣ .
(٣) بنو اسرائيل في القرآن ، د . محمد عبد السلام محمد ، ص ٧٥ .
(٤) سورة البقرة : آية ١٤٢ .

القبلة باطلة . قال تعالى : (وماكان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم)[1] كما قالوا ان قبلتنا أفضل من قبلتكم فهي الأولى وهي مهاجر الأنبياء وغير ذلك من يهود كثير جدا لايتسع المقام لسرده .

المبحث الثاني : سرية عبد الله بن جحش :

في شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة ، بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن جحش في ثمانية من المهاجرين وأعطاه كتابا وأمر ألا ينظر فيه حتى يسير يومين [2] . وفيه (اذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة [3] فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم) ،فمضى عبد الله بن جحش وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ حتى نزلوا نخلة قمرت بهم عير لقريش عليها عمرو بن الحضرمي ، وكانت آخر ليلة من رجب فتشاور القوم فيما بينهم وقالوا لئن تركتموهم ليدخلن الحرم وليمتنعن ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام . فتردد القوم وهابوا الاقدام ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا قتالهم فقتل عمرو بن الحضرمي وأسر اثنان من المشركين وعاد الصحابة بالقافلة والأسيرين الى المدينة ، فلما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ما أمرتكم بقتل في الشهر الحرام ، وأوقف التصرف في العير والأسيرين فسقط في أيدى القوم وعنفهم اخوانهم المسلمون ووجد المشركون واليهود فرصة فانطلقت الأبواق تدس الدعايات المضللة وتظهر محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصورة المستحل لحرمات الله المستهين بمقدسات العرب . وتفاءلت يهود بذلك على محمد

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣ .
(٢) وذلك خوفا من شيوع الخبر وهو في المدينة عن طريق اليهود والمنافقين .
(٣) موضع بين مكة والطائف .

وصحبه . حتى أنزل الله ـ عز وجل ـ : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يرد وكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (١) . هذا مثالان (٢) لما عاناه المسلمون من المشركين واليهود من حرب نفسية وغزو فكرى يقصدون من ورائه تشوية الاسلام والصد عنه لا يتركون فرصة ولا مدخلا الا ولجوه وهذا مايفعله الاعلام المعادى للاسلام والمسلمين في عصرنا هذا خاصة الاعلام الذى يكون لليهود اليه سبيلا من تشويه للاسلام والصاق التهم والشبه وبلبلة لأفكار المسلمين وزعزعة لعقائدهم فما أشبه الليلة بالبارحة .

المبحث الثالث : غزوة أحد :

ماكاد المسلمون ينعمون بالنصر في يوم بدر ويشفي الله صدورهم من أذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم . حتي يكون الابتلاء والتمحيص في يوم أحد . قال الزهرى وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيي بن حبان وغيرهم : (كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله ـ عز وجل ـ به المؤمنين وأظهر به المنافقين ممن كان يظهر الاسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر فأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته) (٣) .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧ .
(٢) أى تحويل القبلة وسرية عبد الله بن جحش .
(٣) زاد المعاد ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

فقد بدأت المعركة بانخزال رأس النفاق عبد الله بن أبي بثلث الجيش ، وفي هذا توهين لشوكة المسلمين وتقليل عددهم أمام عدوهم حتى قال الأنصار - رضي الله عنهم - يا رسول الله الا نستعين بحلفائنا من يهود فقال - صلى الله عليه وسلم - لا حاجة لنا بهم وتعبأ - صلى الله عليه وسلم - في سبعمائة رجل وأمر الرماة ألا يبرحوا مكانهم - وكانوا خمسين رجلا - وبدأت المعركة وكانت الدائرة للمسلمين وأبلوا في القتال بلاء حسنا ، وقتل من المشركين عدد كبير . قال ابن اسحاق : (ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها) [1] . وولى المشركون هاربين حتى انتهوا الى نسائهم فشمرن ثيابهن وولين هاربات . فعن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر الى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذ هن قليل ولا كثير اذ مالت الرماة الى العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ الا أن محمدا قد قتل فأنكفأنا وأنكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى مايدنو منه أحد من القوم [2] .

فهكذا بدأت الهزيمة بعصيان بعض الرماة أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وميلهم الى عرض الدنيا وكان لهم في ذلك مندوحة فقد ظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، وقد انتهي القتال فليشاركوا في جمع الغنائم . عندئذ كر خالد بن الوليد بخيل المشركين الى الثغر الذى كان يحمي ظهور المسلمين فأحتلوه فما راع

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٤ .

(٢) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٤ .

المسلمين الا والنبل تأتيهم من خلفهم وهنا تحولت المعركة لصالح المشركين ودارت الدائرة على المسلمين ووقع الهرج والمرج في الصف المسلم ووقعت فيه الفوضى والاضطراب حتى صار بعضهم يضرب بعضا ، وأشاع ابن قمئة بعد أن قتل مصعبا رضي الله عنه ـ وظن أنه رسول الله ان محمدا قد قتل وهنا كانت الفاجعة للمسلمين ودخل الفشل في قلوبهم حتى ان بعضهم ألقى سلاحه فعلام يقاتل وقد قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومر أنس بن النضر يقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون . فقالوا : قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ فقال : ياسعد اني لاجد ريح الجنة من دون أحد فقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة) [1] . واستشهد من المسلمين سبعون رجلا ، فقد ثبت في الحديث الصحيح عند البخارى عن البراء أنهم قتلوا من المسلمين سبعين رجلا [2] .

وكانت فاجعة المسلمين العظمى بما أصاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك اليوم . ففي صحيح مسلم (عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد الساعدى يسأل عن جرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد فقال : جرح وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكسر رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ، فكانت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تغسل الدم وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ يسكب عليها بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ثم الصقته بالجرح فأستمسك الدم [3]

---

(١) زاد المعاد ، جـ ٢ ، ص ٩٢ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٩١ .
(٣) مختصر صحيح مسلم ، ص ٣١٢ .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول : (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى الله)فأنزل الله تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) (١) .

وجرح ابن قمئة وجنته الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حفرة من الحفر التى عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون (٢) .

وكانت فاجعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عمه حمزة أسد الله وأسد رسوله الذى قتله وحشي ليعتق به ومثلت به هند بنت عتبه فبقرت بطنه وأخذت كبده فلاكتها وعند ما رآه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لئن أصاب بمثلك أبدا ما وقفت قط موقفا أغيظ الي من هذا) (٣) .

وجاء أبي بن خلف يريد قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتناول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حربة من أصحابه فضربه بها فمات عدو الله بسرف . وقاتل دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسة من أصحابه ، قتلوا رجلا رجلا ، وترس أبو دجانه دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبل يقع على ظهره) (٤) ، وأصيب المسلمون ذلك اليوم مابين قتيل وجريح . قال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن عبد الرحمن بن عوف أصيب فوه يومئذ فهتم وجرح عشرين جراحه أو أكثر

---

(١) مختصر صحيح مسلم : ص ٢١٢ .
(٢) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .
(٣) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٧٩ .
(٤) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

أصابه بعضها في رجله فعرج[١] ، وسقطت ثنيتا أبي عبيدة بن الجراح فهتم وذلك عند ما أراد نزع حلقتي المغفر من وجنة النبي -صلى الله عليه وسلم-[٢] وقد أبلى طلحة بن عبيد الله في ذلك اليوم بلاءً حسنا وكثرت به الجراح ، وشلت يده -رضي الله عنه وأرضاه- وكان -صلى الله عليه وسلم- يقول (من أحب أن ينظر الى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله)[٣] ، وكان يسمى الشهيد الحي . عن الزبير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم -يومئذ يقول : (أوجب طلحة)[٤] حين صنع برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما صنع[٥] .

ومن شدة ما أصاب المسلمين في ذلك اليوم من جهد وجراح فانهم صلوا الظهر قعودا . قال ابن هشام : ذكر عمر مولى غفرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى الظهر يوم أحد قاعدا من الجراح التي أصابته وصلى المسلمون خلفه قعودا[٦] ومن شدة الجهد فقد دفنوا الرجلين والثلاثة في قبر واحد .

وفي سنن أبي داود عن هشام بن عامر أنه قال : جاءت الأنصار الى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد فقالوا : قد أصابنا قرح وجهد فكيف تأمر ؟ فقال : (أحفروا وأوسعوا وأجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد)[٧] .

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٣١ .
(٢) " " " " ، ص ٢٧ .
(٣) " " " " ، ص ٢٨ .
(٤) أى وجبت له الجنة .
(٥) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٣٥ .
(٦) " " " " ، ص ٣٦ .
(٧) " لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .

وقد تنفست قريش الصعداء مما أصابها يوم بدر وانتفخ الباطل فوقفت هند بنت عتبة ونساؤها يمثلن بالشهداء يجدعن الآذان والأنف حتى اتخذن منها خلاخيل وقلائد ثم علت صخرة مشرفة وصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ماكان لي عن عتبة من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري
فشكري وحشي على عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري(١)

وضرب أبو سفيان شدق حمزة بن عبد المطلب بالرمح وقال له ذق عقق (٢) ، ولما أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته أنعمت فعال : ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قم ياعمر فأجبه ، فقل الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار(٣) .

ومن تبجح الكفر في هذا اليوم واعادته الثقة بنفسه بعد أن اهتزت يوم بدر أنه يريد الكرة مرة أخرى فنادى أبو سفيان المسلمين (ان موعدكم بدر للعام القابل) (٤) .

أثار المعركة : يقول الشيخ محمد الغزالي : (ان معركة أحد تركت آثارا غائرة في نفس النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظلت تلازمه الى آخر عهده بالدنيا . في هذا الجبل الداكن الجاثم حول يثرب أودع محمد أعز الناس عليه وأقربهم الى قلبه)(٥)

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٤١ .
(٢) أى باعاق .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٤٥ .
(٤) " " " " " " .
(٥) فقه السيرة للغزالي .

وكان يقول عن أحد (هذا جبل يحبنا ونحبه) [١] . وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرا مايزور شهداء أحد . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتي قبور الشهداء فاذا أتى فرضة الشعب قال : (السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ثم كان أبو بكر بعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله) [٢] حتى في آخر حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانه صلى على شهداء أحد .

ففي صحيح البخارى عن عقبة رضي الله تعالى عنه قال : (أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف النبي فقال : أني فرط لكم وأنا شهيد عليكم واني لأنتظر الى حوضي الآن وأني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أومفاتيح الأرض واني والله ماأخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها) [٣] .

وعند ما مر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدار من دور الأنصار وسمع البكاء والنوائح على قتلاهم ذرفت عينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكى ثم قال (لكن حمزة لابواكي له) ثم انه نهى عن النوح بعد ذلك [٤] . وقد أنتهز المنافقون واخوانهم اليهود فرصة هزيمة أحد لبث أفكارهم المسمومة ضد الاسلام والمسلمين ، وسخروا من المسلمين . فكيف يهزم النبي المرسل من عند الله وتفاءل اليهود بهذه الهزيمة

---

(١) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .
(٣) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٢٧ .
(٤) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٥٠ .

بأنها بداية لاستئصال المسلمين ، وتجرأ على المسلمين من كان يهادنهم ويخافهم بعد بدر من الأعراب المتربصين وظنوا أن المدينة أصبحت لقمة سائغة للسلب والنهب وأخذ الغنائم منها ، وبدأ ذلك بنو أسد فبغتهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارسال أبي سلمة الذى شتتهم وأستاق نعمهم .

كما حاول خالد بن سفيان الهذلي أن يحشد الجموع لغزو المدينة ، فأرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليه عبد الله بن أنيس فقتله . ومن آثار أحد المفجعة حادثة يوم الرجيع وبئر معونة وسنذكرهما انشاء الله في مبحثين آخرين .

المبحث الرابع : يوم الرجيع :

وملخص القصة من السيرة لابن هشام أنه قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أحد في سنة ثلاث رهط من عضل والقارة (١) ، وقالوا ان فينا اسلاما فابعث معنا من يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن فبعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم ستة من أصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت وخبيب ابن عدى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد ، فخرجوا مع القوم حتى اذا كانوا على الرجيع (٢) ، غدروا بهم استصرخوا عليهم هذيلا (٣) ، ففشوهم بالسيوف فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم لكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم . فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم فأبوا أن يقبلوا العهد من مشرك ثم قاتلوا حتى قتلوا . أما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق فأسروهم

---

(١) قبيلتان من بني الهول بن خزيمة بن مدركة .
(٢) ماء الهذيل .
(٣) وذلك أن هذيلا تريد الانتقام منهم لسفيان بن خالد الهذلي الذى قتله عبد الله ابن أنيس .

ثم خرجوا بهم الى مكة ليبيعوهم فأما عبد الله بن طارق فأنتزع يده من الأسر وقاتل فرموه بالحجارة حتى أستشهد . أما خبيب وزيد فباعوهما بمكة .

فأما خبيب فأبتاعه حجير ابن أبى اهاب ليقتله بعقبة بن الحارث ، وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه .

ولما خرجوا به ـ رضي الله عنه ـ الى التنعيم ليقتل واجتمع اليه نفر من قريش تقدم اليه أبو سفيان وقال له : (أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال ـ رضي الله عنه ـ والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان قائد مشركي مكة والذى يتمنى معشار هذه المكانة في أصحابه فهو الرجل الذى يحب الفخر ويحب أن يسمع له ويطاع (ما رأيت من الناس أحد يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا) ، أما خبيب فعندما أخرج ليقتل طلب منهم أن يتركوه ليركع ركعتين تكون وداعه من الدنيا فكان ـ رضي الله عنه ـ أول من سن الركعتين عند القتل فلما أوثقوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة مايصنع بنا ثم قال : اللهم احصهم عددا وأقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ، ثم قتلوه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ . وكان مما قاله عندما بلغه أنهم اجتمعوا لصلبه :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان في الله مصرعي

وقد وجد المنافقون بغيتهم في هذه الحادثة كما هي طبيعتهم في بث الشكوك وتوهين عضد المسلمين . فقالوا في هؤلاء فيما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : (لما قتل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا لا هم أقاموا في أهلهم ولا هم أدوا رسالة

صاحبهم) [١] .

فأنزل الله فيهم ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام) ومابعدها [٢] .

وأنزل في أصحاب السرية (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد) [٣] .

وقد حزن المسلمون لفقد عاصم وأصحابه . قال الشيخ محمد الغزالي في التعليق مع هذه الحادثة (حزن المسلمون لفقد انهم عاصما وصحبه ولمصرع أسيرهم على هذا النحو الفاجع فقد خسر فريقا من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاج اليهم الاسلام هذه الفترة التاريخية . ثم ان اصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجسا وقلقا اذ أن ذلك السلك دل على مبلغ طماعية العرب في أهل الايمان واستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم دون تخوف أو محاذرة قصاص) [٤] .

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٠٤ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٧ ، أنظر السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ١٣٢ .
(٤) فقه السيرة للغزالي ، ص ٢٩٨ .

المبحث الخامس : بئر معونة :

في صفر سنة أربع من الهجرة واصل القصة كما هي في السيرة لابن هشام باختصار أنه قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو البراء عامر بن مالك ملاعب الأسنة فدعاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد عنه وأشار على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يبعث من أصحابه الى أهل نجد فيدعونهم الى الاسلام ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخوف على أصحابه أن يحدث لهم ما حدث لأصحاب الرجيع . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (اني أخشى عليهم أهل نجد) قال أبو البراء : انا لهم جار فلم يكن بد من ارسال الدعاة الى الله مهما كان الخطر فضرورة الدعوة تقتضي ذلك ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يستوثق لأصحابه فلما أجارهم أبو البراء بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبعين رجلا من القراء ـ من خيرة الصحابة ـ رضي الله عنهم جميعا وأرضاهم ـ فساروا حتى نزلوا بئر معونة ثم بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله . فقال ـ رضي الله عنه ـ لما طعن (فزت ورب الكعبة) (١) . ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه وقالوا لن تخفر أبا براء فأستصرخ عليهم قبائل من سليم فأجابوه فخرجوا حتى أحاطوا بهم فلما رأوهم قاتلوا حتى قتلوا جميعا الا كعب بن زيد فانهم تركوه وبه رمق فعاش الى أن أستشهد يوم الخندق ـ رضي الله عنهم جميعا ـ .

وكان في سرحهم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار فلم يعلما بهذا

---

(١) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٢٩ .

المصاب الجلل : إلا بالطير تحوم حول جثث الشهداء تطعم من أجسادهم ما أستطاعت فقالا ان لهذه الطير لشأنا فأقبلوا حتى رأوا أصحابهم رضي الله عنهم مضرجين بدمائهم متناثرين في الصحراء تسقيهم الرياح وتنهشهم الطير فيالهول الفاجعة وليال قبح الغدر فتشاور عمرو وصاحبه ما العمل وأى عمل يصنعونه ؟ فمانسبة عددهم وعدتهم في قبائل من الأعراب متجمعة على الغدر والخيانة . فقال عمرو نلحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنخبره الخبر . أما الأنصارى فقد ضاقت نفسه بالحياة وبلغت منه الفاجعة مبلغها وتاقت نفسه للشهادة . فقال لعمرو : (ماكنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو وماكنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال) ، ثم قاتل القوم حتى قتل - رضي الله عنه - وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا فأعتقه رأس الغدر والخيانة عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها على أمه فيالعقول الشرك ما أسفهها وأقل حلمها ، يقتل سبعين من خيرة الرجال غدرا وخيانة ويترك واحدا وفاء لذمة أمه . ورجع عمرو الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاملا معه أنباء المصاب الفادح وفي طريقه قتل رجلين ظن أنهما من بني عامر ثأرا لأصحابه وتبين له أنهما من بني كلاب وأنهما معاهدان للمسلمين فقال - صلى الله عليه وسلم - : (لقد قتلت قتيلين لأدينهما ثم قال - صلى الله عليه وسلم - هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ، وقد قنت - صلى الله عليه وسلم - شهرا يدعو على من فعل هذا بأصحابه . ففي صحيح البخارى عن أنس رضي الله عنه . قال : (قنت النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد الركوع شهرا يدعو على رعل وذكوان ويقول عصية عصت الله ورسوله) (١) .

---

(١) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٣٠ .

وقد حزن المسلمون لهذا المصاب الجلل الذى ذكرهم بمأساة أحد فقد أودعوا فيه سبعين شهيدا من خيارهم وهاهم يفقدون في الصحراء القاحلة سبعين من القراء ذهبوا ضحية الغدر والخيانة . ولقد زاد موقفهم حرجا أن هذه النكبة ونكبة يوم الرجيع تشعر بتجراء القبائل عليهم وتكشف الوثنية لهم عن الحقد وغيظ كانت تخفية قبل أحد ، وها هي اليوم تبديه غدرا وخيانة وابا حية لدماء المسلمين دون تخوف ولا توجس من عاقبة الفعلة ، لقد أصبح موقف المسلمين في المدينة موقفا حرجا فهم يريدون أن يزيلوا عن أنفسهم آثار الكارثة في أحد ويشدوا صفوفهم مرة أخرى ويعيدوا هيبتهم في نفوس المشركين وغيرهم من يهود ومنافقين فقريش انتفشت وانتفخت بنصرها الزائف في أحد وأخذت تتوعد المسلمين ببدر العام القابل ، واليهود والمنافقون أفصحوا عما في أنفسهم من حقد وحسد للمؤمنين الصادقين والأعراب المتربصون أخذوا يعدون لجلب الغنائم من المدينة بينما تشاء حكمة العليم الخبير - للابتلاء والتمحيص للصف المسلم - أن تتوالى الخسائر والنكبات فما يخرج المسلمون من محنة الا ويدخلون في أخرى . ولكن النكبات والخسائر لا تفت في عضد المؤمنين الصادقين فأستمروا في دعوتهم وتضحيتهم وطمأنينتهم وصلتهم بربهم وطاعتهم لقائدهم - صلى الله عليه وسلم - ولم يقولوا كما قالت بنو اسرائيل لموسى - عليه السلام - (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) ، لكنهم رضي الله عنهم يرون في أتباعه - صلى الله عليه وسلم - الخير كل الخير في الدنيا والآخرة ويرون أن من قتل منهم فهو شهيد له الجنة . ويقول أحدهم وهو ينضح الدم عند ما طعن : (فزت ورب الكعبة) (١) . ومن عاش منهم فهو سعيد : (هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا

---

(١) هو حرام بن ملحان ، راجع ص ٧٥ .

انا متربصون) . ولقد شهد العدو بشدة حبهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهذا أبو سفيان يقول : (ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا) [١] . ولذا فعندما نقضت يهود بني النضير عهدها وأرادوا اغتيال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يتوان أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ما أصابهم من الكوارث في أن يردوا عليهم ويلقنوهم درسا لن ينسوه فعزموا على قتالهم حتى نزلوا على حكمهم فأجلوهم عن ديارهم [٢] . وبهذا تحدوا من ظن أنهم ضعفوا أو جبنوا من يهود ومنافقين ووثنيين . (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) [٣] .

المبحث السادس : غزوة الخندق :

وكانت في شوال سنة أربع للهجرة[٤] وكانت بتحريض من يهود بني النضير الذين أجلاهم المسلمون بسبب غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق فهم الذين حزبوا الأحزاب وجمعوا قبائل العرب ، وحرضوا اخوانهم يهود بني قريظة على نقض عهدهم مع المسلمين فقد ذهب رؤساؤهم الى مكة الى كفار قريش يستنفرونهم الحرب ، وكانت قريش قد وعدت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بدرا العام القابل فأخلفت فكانت الغرصة مواتية لها لتبر بوعدها وتحفظ كرامتها أمام العرب ولكن

---

(١) كلمة لأبي سفيان قالها عند مصرع زيد بن الدثنة ، راجع ص ٧٣ .
(٢) أنظر تفاصيل الحادثة في كتب السيرة
(٣) سورة آل عمران : آية ١٤٦ .
(٤) صحيح البخاري ، مجلد ٣ ، ص ٣٠ .

قريش كأنهم شكوا في دينهم وفي أمرهم وموقفهم من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذا سألوا أحبار يهود فقالوا لهم : (يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فأنزل الله فيهم : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) [1] ، فهم بهذا قد أعطوا قريشاً الثقة المادية بمحالفتهم لهم والثقة المعنوية التي هي أساس العمل وروحه المحرك بقولهم بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . ولكن يهود لم يكتفوا بقريش وحدها فهم أهل مكر وخبث وأكثر تبصرا وروية في عواقب الأمور فلقد جاوروا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه وعلموا منهم الشدة في الحق ، والشجاعة في الحرب . فلذا استعدوا لهم بكثرة تحزيب القبائل عليهم لأنهم يريدونها موقعة حاسمة تحسم أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه الى الأبد لذا توجهوا الى غطفان وقالوا لهم نحوا مما قالوا لقريش وشجعوهم على الحرب وطافوا بالقبائل يعرضون عليهم مشروع غزو المدينة واستئصال أهلها عن آخرهم ، وكان لكل قبيلة مأرب لغزو المدينة ويجمعهم جميعا الكفر والحقد على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه .

وبذلك نجح ساسة يهود في تأليب القبائل وتحزيب الأحزاب ، وعلم بذلك المسلمون واستشار ـ صلى الله عليه وسلم أصحابه في ذلك . فالأمر جد خطير

---

(١) سورة النساء : آية ٥١ - ٥٢ .
(٢) أنظر السيرة لابن كثير جزء ٣/ ص ١٨٢ .

فالكفتان غير متوازيتين ، فقريش بأحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة يربو جيشهم على عشرة آلاف مقاتل يسوقهم الحقد وحب الثأر من محمد وصحبه وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف . لهذا قرروا التحصن في المدينة والدفاع عنها وأشار سلمان - رضي الله عنه - بحفر الخندق . فقبل المسلمون مشورته وقاموا بحفر الخندق ، وأبدى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اخلاصهم وجدهم وتضحيتهم في تلك الظروف العصيبة من الجوع والبرد والخوف . قال أبو طلحة : (شكونا الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن حجرين) (١) .

ولكنهم كانوا في غاية السعادة يحمدون الله ويشكرونه ويعملون رغبة واحتسابا وكانوا يرتجزون فهم لا يريدون الا الله والدار الآخرة .

قال أنس - رضي الله عنه - خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - الى الخندق ، فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : (اللهم ان العيش عيش الآخرة فأغفر للأنصار والمهاجرين) .

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا (٢)

---

(١) سنن الترمذي ، المجلد ٤ ، ص ١٥ برقم ٢٤٧٦ .
(٢) صحيح البخاري ، جـ ٣ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم يعمل مع أصحابه احتسابا للأجر وتشجيعا لهم ، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال : (كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه (١) . أو أغبر بطنه يقول :

والله لولا الله ما أهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام ان لاقينا
ان الألى قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا (٢)

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : (... ويؤتون بملء كف من الشعير فتصنع لهم باهاله سنخة توضع بين أيدى القوم وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتنة) (٣) .

هذا حال المخلصين من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما المنافقون فقد ضاقوا بهذا العيش ذرعا ، وأبطأوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعلوا يعوقون بالضعيف عن العمل ويتسللون الى أهلهم بغير علم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قال ابن هشام : فأنزل الله ـ عز وجل ـ في المؤمنين : (انما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه ان الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استئذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم) (٤) ، وقال في المنافقين : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله

---

(١) وارى التراب جلده بطنه .
(٢) صحيح البخارى ، مجلد ٣ ، ص ٣٣ ، وهذا الشعر لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه .
(٣) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٣١ .
(٤) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٣١ بتصرف ، والآية من سورة النور رقم ٦٢ .

الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا ان الله مافي السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بماعملوا والله بكل شئ عليم) (١) .

وفي أثناء حفر الخندق عرضت بعض المعجزات والبشائر له ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومن ذلك ماروواه البيهقي (عن البراء بن عازب قال : (عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول فشكونا ذلك الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رأها أخذ المعول وقال بسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله اني لأبصر قصورها الحمراء انشاء الله ، فقطع ثلثا آخر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله اني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله اني لأبصر أبواب صنعاء في مكاني الساعة) (٢) . الله أكبر ان النصر والفتح لا يأتي الا بعد الابتلاء والشدة ، كما أن النور لا يأتي الا بعد شدة الظلمة .

وفي الحديث الذى رواه البخارى عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : (انا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا هذه كدية عرضت للخندق . فقال : أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل أهيم (٣) . فقلت : يا رسول الله أذن الى البيت فقلت لامرأتي

---

(١) سورة النور : آية ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ١٩٤ .
(٣) أهيل أو أهيم هو الذى ينهال فيسيل من لينة ويتساقط من حواليه .

رأيت من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا ما كان في ذلك صبر فعندك شيء . قالت عندى شعير وعناق فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعجين قد أنكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال : كم هو فذكرت له . قال : كثير طيب . قال : قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي . فقال : قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على أمرأته قال : ويحك جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألك . قلت : نعم . قال : أدخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور اذا أخذ منه ويقرب الى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية . قال : كلي هذا وأهدى فان الناس أصابتهم مجاعة) (١) .

ولما فرغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون من الخندق جاءت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال وأقبلت غطفان حتى نزلوا بذنب نقمى الى جانب أحد . وخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فجعلوا في الأطام (٢) .

ولم يكتف أعداء الله ـ يهود بني النضير ـ بهذه الجموع الغفيرة التى جمعوها للمسلمين ، كيف يكتفون بذلك وهم يعلمون شدة أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) صحيح البخارى ، مجلد ٣ ، ص ٣١ .
(٢) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٥ بتصرف يسير

لاسيما وأنهم يريدونها ضربة قاضية لا تقوم للاسلام والمسلمين بعدها قائمة . لهذا أتجه حيي بن أخطب النضرى الى كعب بن أسد سيد بني قريظة ، وكان بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقد وعهد فما أن رأى كعب بن أسد حيي بن أخطب حتى أغلق بابه ، لكن عدو الله حيي لم يزل به حتى أغراه بنقض العهد فنقض كعب بن أسد عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبرئ منه .

وما كان امتناع كعب من نقض العهد لأمانته وحفظه للعهود كلا فليس هذا من طبيعة يهود لكنه كان يعلم ما حصل لأخوانه من بني قينقاع وبني النضير عندما نقضوا عهدهم مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخشى أن يصيبه ما أصابهم فلما أستوثق عدو اللهوتأكد أن لا قبل للمسلمين بهذه الجموع وظنها ضربة قاضية للمسلمين نقض عهده .

فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر بني قريظة (تقتع بثوبه فأضطجع ومكث طويلا فأشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير ثم انه رفع رأسه وقال أبشروا بفتح الله ونصره) (١) .

وعظم البلاء وأشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن . ونجم النفاق ودسوا وساوسهم وتخذيلهم للمؤمنين ـ كما هي عادتهم في المواقف الحرجة من مواقف المسلمين ـ وقال بعضهم : (قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط) ، فأنزل اليه : (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ .

الله ورسوله الا غرورا) الآيات . وقال بعضهم : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا) .

وبعضهم يستأذن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الرجوع الى داره فيقول : ان بيوتنا عورة ـ أى ظاهرة للعدو ـ فأنزل الله : (وماهي بعورة ان يريدون الا فرارا) (١) .

قال ابن اسحاق : (فأقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرابطا وأقام المشركون يحاصرونه بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ولم يكن بينهم الا الرَّمْيا بالنبل)(٢) فلما أشتد البلاء بالمسلمين أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخفف عنهم من عدوهم فبعث الى غطفان وأعطاهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد مشاورة أصحابه في ذلك ومعرفة مدى ماعندهم من التصميم على الصمود أمام العدو مهما قويت شوكته ، كما فعل في بدر . فأستشار سعد بن معاذ وسعد بن عباده فقالا ـ رضي الله عنهما ـ الجنود البواسل الوقافون عند حدود الله يا رسول الله أمرا تحبه فتصنعه أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل شئ أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك الا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أخر ما فقال سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ولله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا

---

(١) عن كتاب مختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب بتصرف ص ٢٤٩ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

وبينهم . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا مافيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا) (١) .

وأقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه هذه المدة قريبا من شهر وهم في عظمة البلاء وشدة الخوف والبرد والجوع وعدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم والمنافقون يخذلون ويستهزئون وقد بلغت القلوب الحناجر كما وصف الله جل وعلا : (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وماهي بعورة ان يريدون الا فرارا . . . الى آخر الآيات) (٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب : والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولا مروعا رعيبا(٣). قال الامام أحمد : (. . . عن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شئ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر . قال : (نعم اللهم استر عورتنا وأمن روعتنا) . قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح) (٤) فهذه الآيات وهذا الحديث تبين مقدار الخوف والزلزلة التى حصلت للمؤمنين في ذلك اليوم وهم منهم ـ رضي الله عنهم ـ شجاعة وصبرا واقداما لكن هذا دليل على أن الأمر بلغ منتهاه في الشدة والابتلاء . فلقد أحاط بهم الأعداء احاطة السوار بالمعصم

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢٠٢ .
(٢) سورة الأحزاب : آية ١٠ ـ ١٣ .
(٣) الظلال ، جـ ٦ ، ص ٥٥٢ .
(٤) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢١٣ .

ورمتهم العرب بقوس واحدة حتى شغلتهم عن أعز شيء عندهم صلاة العصر . قال موسى بن عقبة (١) : (وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم فحاصروهم قريبا من عشرين ليلة وأخذوا بكل ناحية حتى لا يدرى أثم هم أم لا - أى هل احتلوا البلد أم لا - . قال : ووجهوا الى منزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتيبة غليظة فقاتلوهم يوما الى الليل فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة فلم يقدر النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة على نحو مما أرادوا فأنكفأت الكتيبة مع الليل فزعموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم وفي رواية وقبورهم نارا) . فلما أشتد البلاء نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح (٢).

وفي صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله : (أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش وقال يا رسول الله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - " والله ما صليتها " فنزلنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطحان (٣) فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما ماغربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب (٤).

---

(١) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدى الولاء أبو محمد مولى آل الزبير عالم بالسيرة النبوية من ثقات رجال الحديث من أهل المدينة ، مولده ووفاته فيها له كتاب المغازى ، قال الامام أحمد بن حنبل عليكم بمغازى ابن عقبة فانه ثقة . نقلا عن كتاب الأعلام لخيرالدين الزركلي ، جـ ٨ ، ص ٢٧٦ .

(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢٠٩ .

(٣) واد بالمدينة .

(٤) صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٣٣ . قال النووى (وأما تأخير النبي - صلى الله عليه وسلم - صلاة العصر حتى غربت الشمس فكان قبل نزول صلاة الخوف) ، ثم قال وأما اليوم فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال بل يصلي صلاة الخوف على حسب الحال . صحيح مسلم بشرح النووى ، جـ ٥ ، ص ١٣٠ .

قال محمد بن مسلمة وغيره : (كان ليلنا بالخندق نهارا وكان المشركون يتناوبون بينهم فيعد و أبوسفيان بن حرب في أصحابه يوما ويعد و خالد بن الوليد يوما ويعد و عمرو بن العاص يوما ويعد و هبيرة بن أبي وهب يوما ويعد و عكرمة بن أبي جهل يوما ويعد و ضرار بن الخطاب يوما حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفا شديدا) (١).

وكان صلى الله عليه وسلم ـ المتصل بالله ـ عز وجل ـ في هذه المدة العصيبة يبشر أصحابه ويطمئنهم ويصلهم بالله ويقول : (والذى نفسي بيده ليفرجن الله عنكم ماترون من الشدة واني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق أمنا وأن يدفع الله الي مفاتيح الكعبة .وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله) (٢) .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائم الصلة بالله ـ عز وجل ـ يدعوه ويتضرع اليه وكان يدعو على الأحزاب : (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب أهزم الأحزاب اللهم أهزمهم وزلزلهم) (٣) .

ولما عظم البلاء وأشتد الخوف وعظمت الفتنة وزلزل المؤمنون وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون كل مافي وسعهم واستفرغوا جهودهم وأخذوا بكل اسباب الحيطة وصمدوا أمام الأحزاب ، ونجحوا في الامتحان ومما ظهر من ايمانهم وتصديقهم أنهم قالوا (هذا ماوعدنا الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا وتسليما) . أنزل الله نصره وأرسل ريحا وجنودا لم يروها ، وجاء الفرج بعد الشدة والنصر بعد الفتنة والابتلاء . فجاءت الجنود

---

(١) الظلال ، جـ ٦ ، ص ٥٥٢ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ .
(٣) صحيح البخارى ، مجلد ٣ ، ص ٣٣ .

من كل نوع (ومايعلم جنود ربك الا هو) ، فدب اليأس والقنوط في قلوب المشركين من طول الحصار ، وما كان الحصار من عادة العرب ، وأرسل الله جنديا من جنوده نعيم بن مسعود فخذل بين الأحزاب (١) وأنتقض بعضهم على بعض وخاف بعضهم بعضا وأرسل الله الرياح الشاتية شديدة البرد تلفح وجوههم وتكفئ قدورهم وتقلع خيامهم فلا يقر لهم قرار وألقى الله الرعب في قلوبهم فأحسوا أنهم ماعادوا بدار مقام وأن أمنية النصر والاستئصال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه أصبحت بعيدة المنال ، ستحيلة التنفيذ مما رأوا من جنود الله . عندها قال أبوسفيان وقد دب الرعب في قلبه فكأنه أحسن شيئا غريبا يدب في معسكره ، وقال (يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه . ثم قال يا معشر قريش والله إنكم ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فأرتحلوا اني مرتحل) (٢) .

وعندما سمعت غطفان بما فعلت قريش أرتحلت أيضا فما هي بأشد من قريش قوة ولا أشد منها حقدا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه .

وفي صباح اليوم الباكر مد المسلمون أعينهم الى معسكر الشرك فلم يروا أحدا فأحسوا بنصر الله ـ عز وجل ـ وأحسوا بنتيجة وحسن عاقبة صبرهم وثباتهم وصمودهم أمام الشرك وأعداء الله قرابة شهر وهم في أشد الخوف والجوع والبرد .

بعد هذا الابتلاء والصبر والثبات والايمان أنفرجت المحنة وأنكشفت الغمة

---

(١) أنظر القصة كاملة فى السيرة لابن هشام .

(٢) جزء من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بتصرف السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٢٥١ .

وتحول الموقف من موقف الدفاع الى موقف الهجوم فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث الذى رواه البخارى : (الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم) (١) وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك يذكر نعمة الله عليه فكان يقول : (لا اله الا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده) (٢) .

وكان في هذا ابتلاء للمؤمنين نجحوا فيه ايما نجاح حيث ظهر من ايمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا به الأولين والآخرين ، وعندما أشتد الكرب وتفاقمت الشدائد صار ايمانهم عين اليقين ، (فلما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) (٣) ، وكذلك فيه ابتلاء للمنافقين أخفقوا فيه وظهر نفاقهم وما كان يضمرون (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) (٤) ، (٥) .

وكان من آثار غزوة الخندق السلبية على المشركين أنهم ما عادوا يفكرون في غزو المسلمين ورأوا بأعينهم شدة ثبات المؤمنين والنصر الرباني الذى ينزل عليهم . هذا وهم ـ المشركون ـ في أكبر قوة لهم وأكبر تحالف عرفوه في تاريخهم ومع ذلك ذهبت هذه القوة وهذا التحالف أدراج الرياح (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) (٦)

---

(١) صحيح البخارى ، مجلد ٣ ، ص ٣٣ .
(٢) صحيح البخارى ، مجلد ٣ ، ص ٣٣ .
(٣) سورة الأحزاب : آية ٢٢ .
(٤) سورة الأحزاب : آية ١٢ .
(٥) من تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدى بتصرف يسير ، جـ ٦ ، ص ٢٠٢ .
(٦) سورة الأحزاب : آية ٢٥ .

كذلك لها نتيجة سلبية على المنافقين ظهر بها نفاقهم وفضحوا أمام المؤمنين الصادقين وخابت ظنونهم السيئة بالله ورسوله .

كما أن صورتها السيئة على يهود الغدر والخيانة ـ بني قريظة ـ كانت واضحة وهي استئصال مقاتلتهم وسبي نسائهم وذريتهم ، وكان هذا هو جزاؤهم الذى ليس لهم جزاء غيره أو ليسوا يريدون ذلك للمسلمين واستئصالهم عن آخرهم اذن فالجزاء من جنس العمل وهذا هو حكم أعدل العادلين فيهم من فوق سبع سموات .

ويظهر لنا من خلال استعراض غزوة الخندق واستعراض ما قبلها من الغزوات ان هذا الرعب والخوف الشديد والهول المفزع وزلزلة الصحابة وبلوغ القلوب الحناجر وكل ما حدث للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في هذه المعركة ماكان من خوف ولا هلع منهم ـ رضي الله عنهم ـ كلا وألف كلا فقد رأينا من خلال استعراض سير هؤلاء أنهم أبطال وشجعان ، وما كانوا يخافون القتل ويهابون لقاء العدو ، فلقد كان أحدهم يقول وقد طعن ـ رضي الله عنه ـ (فزت ورب الكعبة) (١) .

وكان بعضهم يدعو الله : (أن يلقي العدو فيجدع أنفه وأذنه وذلك في سبيل الله عز وجل) (٢) . وبعضهم يقول وهو من القتل :

قاب قوسين أو أدنى ، ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أى جنب كان في الله مصرعي (٣)

وهم الذين يقولون في أشد المحنة

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا (٤)

---

(١) كلمة قالها حرام بن ملحان عند ماطعن يوم بئر معونة ، صحيح البخارى ، جـ ٣ ص ٢٩ .
(٢) دعاء عبد الله بن جحش قبيل معركة أحد أنظر الحلية لأبي نعيم جـ ١ ، ص ٢٩ .
(٣) قال ذلك خبيب بن عدى يوم قبيل قتله راجع مبحث يوم الرجيع .
(٤) رجز للصحابة رضي الله عنهم في الخندق ، راجع صحيح البخارى ، جـ ٣ ، ص ٢١ .

وبعضهم يقول : (انها لحياة طويلة لئن أنا حييت حتى آكل تمرا تي هذه) [١] . وقال الله فيهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) [٢] . اذن فليس الخوف من القتل هو الذى أفزعهم وزلزلهم انه سبب آخر وهو القتل على الصورة التى أرادها الأحزاب وتجمعوا لتنفيذها ، وهو استئصالهم عن أخرهم وذبحهم بين أبنائهم ونسائهم ، وبالتالي يبقى أبناؤهم ونساؤهم تحت رحمة الوثنية واليهودية ان شاؤا قتلوهم ، وان شاؤا أبقوا على حياتهم في ذلة وفتنة عن دين الله ـ عز وجل ـ الذى ارتضوه وأرتضاه الله لهم . ومن ثم يكون هلاك الدعوة الى الأبد . تلك الدعوة التي يعيشون لها ولا تقوم للاسلام قائمة بعدها . ولذا كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أثناء اشتداد المحنة يقول : (اللهم ان تشأ لا تعبد) [٣]

---

(١) كلمة لعمير بن الحمام قالها يوم بدر ، أنظر السيرة لابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ .
(٢) سورة الفتح : آية ٢٩ .
(٣) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ .

الفصل الرابع : أنواع الابتلاء وركائز الثبات عليه

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أنواع الابتلاء والفتن .

المبحث الثاني : ركائز الثبات في الابتلاء .

المبحث الأول : أنواع الابتلاء والفتن :

كثير من الناس يحصرون كلمة الابتلاء في الاضطهاد والأذى الذي يصيب المؤمن من أهل الباطل ولكننا عندما نتدبر كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وسير أنبيائه عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم وأتباعهم ، بل وواقعنا الذي نعيشه اليوم ، نجد أن كلمة ابتلاء وفتنة أوسع وأشمل من هذا المفهوم الضيق وما هذا المفهوم للابتلاء الا نوع واحد من أنواع الابتلاء الكثيرة المتعددة ، ليس بأعظمها ولا أشدها خطرا بل ان هناك أنواعا أعظم وأشد خطرا على الانسان من هذا النوع المعهود لدينا كما سنوضحه أنشاء الله في هذا المبحث . وسنعرض فيه لبعض من أنواع الابتلاء . ونظرا لكثرة وتشعب وتشابه هذه الأنواع فسوف ندمج الصور المتشابهة في نوع واحد وذلك حتى لا يطول بنا المقال في سرد كل نوع على حده ولذا فسنجعلها أربعة أنواع فقط هي كما يلي :

١- تسلط أهل الباطل على المؤمنين .

٢- الفقر والمرض وأقدار الله المؤلمة .

٣- النعم .

٤- فتنة الشبهات والشهوات والنفس والهوى .

١- الابتلاء بتسلط الأعداء على المؤمنين :

وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا[١]) . (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا[٢]) .

وقد مر معنا فى الفصول السابقة صور هذا الابتلاء مما أصاب أولى العزم من الرسل (صلى الله عليهم وسلم) وما أصاب صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أذى وأضطهاد فى سبيل الله عز وجل وكيف كان هذا الابتلاء رحمة وأجرا وتمحيصا للمؤمنين وكان نقمة وخسارة على المنافقين وضعاف الايمان ، الذين جعلوا فتنة الناس كعذاب الله ، وأن هذا الابتلاء أدى الى إرتداد بعض ضعاف الايمان عن دينهم . ففى تسلط أهل الباطل وأنتصارهم وأنتفاخ الباطل على أهل الحق والايمان فتنة تصد من ضعفت عزيمته وضعف ايمانه وصلته بالله عز وجل ، فلقد تسلط كفار قريش على أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فى مكة يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم - كما مر معنا فى الفصول السابقة - وقد أنتفخ الباطل وأرغى وأزبد يوم أحد ونادى بأعلى صوته ، أعل هبل يوم بيوم بدر وهدد وتوعد ان موعدكم بدر العام القابل[٣] ، وما تبع ذلك من وسائل الغدر والخيانة التى استهدف بها الاسلام والمسلمون فى تلك الفترة ، كما تحزبت الأحزاب وتجمعت القبائل والقوى التى كانت مشتتة فى جزيرة العرب يضرب بعضها رقاب أجتمعت وألتأمت كلمتهم بل لقد اجتمعت مع قبائل يهود وتحالفت لما كان العدو هو الاسلام ، أجتمعت هذه القوى كلها لاستئصال محمد (صلى الله عليه وسلم) وصحبه

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣١ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢١٧ .
(٣) أنظر السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٤٥

(رضى الله عنهم) ومن ثم استئصال الاسلام حتى لا تقوم له قائمة ، وكان من جـــراء هذه الفتنة العظيمة التى أحاطت بالمسلمين أن نجم النفاق وخارت عزائم ضعيفـى الايمان وتبين الصادقون من غيرهم .

واليوم وقد ابتلى المسلمون بتسلط عدوهم عليهم وتداعت عليهم أمم الشرق والغرب ووقع ما أخبر به الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم) بقوله (يوشك أن تداعـــى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها[1] ...) أخرجه أبو داود .

وأصبح المسلمون اليوم يبادون أفرادا وجماعات وتحارب العقيدة الاسلامية حربا شعواء لا هوادة فيها بشتى الأساليب والوسائل . وتكتم أفواه الدعاة الى الله ويخطـــط للقضاء على الدعوة الاسلامية ودعاتها ، وتجند كل القوى لذلك ، وأنتشر الغـــزو الفكرى فى بلاد الاسلام لبلبلة أفكار المسلمين وتشويه عقيدتهم ، كل هذا يقع اليوم فـى كثير من الأقطار الاسلامية على مرأى ومسمع من المسلم ، وهو مع ذلك لا يملك حولا ولا طولا

فالسيادة والقيادة فى أيدى أعداء الاسلام والمسلمون يعيشون حالات الضعف والفقر والتخلف ، ان فى هذا لأعظم ابتلاء ليس للمسلم فحسب وانما أيضا لغـــير المسلم ، فلقد صدت هذه الحالة كثيرين عن الدخول فى الاسلام ، كما أنها أخرجت ضعاف الايمان وضعاف العزائم ، وشككتهم فى دينهم وفى عقيدتهم وفى صلاحية هـذا الدين لقيادة البشرية اليوم ، وفيها ابتلاء عظيم للدعاة الى الله فكثير من دعـــاة المسلمين قد ضعفوا وخارت قواهم عندما يرون هذه القوى الغاشمة اليوم تجند لحـــرب

---

(١) جزء من حديث ثوبان (رضى الله عنه) سنن أبى داود ، جزء ٤ ص ١٥٨ .
وقال الألبانى صحيح ، أنظر صحيح الجامع الصغير جزء ٦ ص ٣٦٤ برقم ٨٠٣٥

العقيدة وتحريفها وتشويهها في نظر المسلمين وغيرهم ، بينما هم يحاولون عرضها على الناس ودعوتهم اليها ، فماذا عساهم؟ أن يفعلوا ازاء هذه القوة مع بعد الناس من دعوتهم ، وعدم تقبلها مع مايواجهون به شخصيا من أذى واضطهاد ومحاولات لاحتوائهم واحتواء دعوتهم ، ان في هذا ابتلاء للدعاة يتميز فيه الداعية الصلب الذى على يقين وثبات في دعوته ويعمل مخلصا وجهه لله عز وجل - من غيره ممن يتحامل على الدعوة ويجامل لها .

ولذا جاء في الحديث (يأتي على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر)[1] .

(ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين)[2] .

٢- الابتلاء بالفقر والمرض وغيرهما من المصائب :

قال تعالى (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)[3] .

ان في هذه المصائب ابتلاء وأختيارا لمن يصبر ويشكر الله في السراء والضراء ممن يجزع ويقنط من رحمة الله عز وجل ، قال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين)[4] .

---

(١) سنن الترمذى جزء ٣/ ص ٣٥٩ .
(٢) سورة الأنبياء : آية ٣٠ .
(٣) سورة البقرة : ١٥٥-١٥٧ .
(٤) سورة المعارج : آية ٢٩-٢٢ .

وقد قسم العلماء - رحمهم الله تعالى - الصبر الى ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

فكثير من الناس اذا أصابه الفقر أو المرض أو غيرهما جزع وقنط من رحمة الله ، فما زادته هذه المصائب الا شرا وبعدا عن الله - عز وجل - وقد نقل ابن القيم - رحمه الله - قول بعضهم :

اذا كان هذا فعله بمحبه فماذا تراه فى أعاديه يصنع ؟

ثم (قال وأنت تشاهد كثيرا من الناس اذا أصابه نوع من البلاء يقول ياربى ما كان ذنبى حتى فعلت بى هذا ؟

وقال لى غير واحد اذا تبت اليه وأنبت وعملت صالحا ضيق على رزقى ونكد على معيشتى واذا رجعت الى معصيته وأعطيت نفسى مرادها جاءنى الرزق والعون ونحو هذا .

فقلت لبعضهم ،هذا امتحان منه ليرى صدقك وصبرك هل أنت صادق فى مجيئك اليه واقبالك عليه فتصبر على بلائه فتكون لك العاقبة ،أم أنت كاذب فترجع على عقبك)[1] .

هذا هو حال ضعاف الايمان مع المصائب ، جزع وضجر وتبرم من قدر الله الذى هو ركن من أركان الايمان (... وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره)[2] .

أما حال أهل الايمان مع هذه المصائب فهو الرضى والتسليم والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، فتكون لهم المصائب خيرا ، وتنزل على نفوسهم بردا وسلاما لما يعلمونه من الأجر الذى أعده الله لهم فى الدار الآخرة . قال (صلى الله عليه وسلم) : (عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[3] ويقول (قال الله تعالى

---

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، جزء ٢ ص ١٧٨ .

(٢) جزء من حديث عمر بن الخطيب المتفق على صحته صحيح مسلم بشرح النووى ، جزء ١ ص ١٥٧ .

(٣) مختصر صحيح مسلم برقم ٢٠٩٢ ص ٥٥٦ .

ما لعبدى المؤمن عندى جزاء ، اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم أحتسبه الا الجنة[1])
وفى الحديث (فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط[2]) .

ولقد أبتلى الله أحد صفوته نبيه أيوب ـ عليه السلام ـ بشتى أنواع المرض فصبر ـ عليه السلام ـ ورضى وسلم بما قدر الله له .

قال تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فأستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين)[3] .

قال ابن كثير (قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم ، كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة ، فسلب الله منه ذلك جميعه ، وأبتلى فى جسده بانواع من البلاء ، لم يبق منه عضو سليم الا قلبه ولسانه بذكر الله ـ عز وجل ـ بهما وهو فى ذلك صابر محتسب ذاكر الله ـ عز وجل ـ فى ليله ونهاره وصباحه ومسائه[4]) .

ولقد أبتلى صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المهاجرين فى أول الهجرة بالحمى الشديدة فى المدينة المنورة ، فى الوقت الذى لا يزالون يحنون فيه الى وطنهم وأهلهم وأموالهم ما ان دخلوا المدينة حتى أصيبوا بالحمى .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : (لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ) . وكانت تقول ـ رضى الله عنها ـ لرسول الله

---

(١) صحيح البخارى . جزء ٤ — ص ١١٧ .
(٢) سنن الترمذى جزء ٤ برقم ٢٥٠٧ ص ٢٧ .
(٣) سورة الأنبياء : آية ٨٣-٨٤ .
(٤) قصص الأنبياء لابن كثير : ص ٢٦٨ .

(صلى الله عليه وسلم) عند ما زارت أبا بكر وعامر بن فهيرة وبلال - رضى الله عنهم - (انهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى[1]) .

وأفضل خلق الله وصفوته من أنبيائه (صلى الله عليه وعليهم وسلم) كان يوعك كما يوعك رجلان ففى الحديث عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال (دخلت على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يوعك فقلت : انك توعك وعكا شديدا[2]، قال : أجل انى أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت ذلك أن لك أجرين ، قال : أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه شوكة فما فوقها الا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها[3]) . متفق عليه .

فهؤلاء هم صفوة خلق الله يصيبهم المرض والفقر وغيرهما من المصائب ولكنهم يرضون ويسلمون ، ويصبرون على ما أصابهم (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون[4])

٣- الابتلاء بالنعم :

وهذا يشمل جميع النعم ، نعمة المال والبنين والصحة والأمن والرئاسة والشرف وغيرها من متع الحياة الدنيا وزينتها .

وهذه النعم فيها ابتلاء وفتنة بل ان الابتلاء بها أشد وأعظم خطرا على الانسان من الابتلاء بالأذى من الأعداء والفقر والمرض .

قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون[5]) .
(وبلوناهم بالحسنات والسيئات[6]) .

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء ٢ ص ٢٢٠ .
(٢) الوعك : الحمى .
(٣) صحيح البخارى : جزء ٤ ص ٣ .
(٤) سورة البقرة : آية ١٥٧ .
(٥) سورة الأنبياء : آية ٣٥ (٦) سورة الأعراف : ١٦٨ .

فهذه الأمور نعمة ان عمل فيها صاحبها وفق منهج الله وعلم أن لله فيها حقا وحذر من فتنتها ، أما ان غفل عن حقيقتها وأطمأن اليها ولم يشعر أن فيها ابتلاء وأمتحانا له ، ولم يعلم لله فيها حقا ، وعمل فيها وفق هواه ، وما تمليه عليه نفسه وشهواته ، فهى نقمة ، وليست بنعمة ، انها استدراج (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون[١]) .

وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون[٢]) .

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون[٣]) .

وقال (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث الصحيح (انما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا فهو بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما

فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فوزرهما سواء[٤]) . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

---

(١) سورة القلم : آية ٤٤ .
(٢) سورة المؤمنون : آية ٥٥ .
(٣) سورة التوبة : آية ٥٥ .
(٤) سنن الترمذى جزء ٣ ص ٣٨٥ ، رقم ٢٤٢٧ .

وقال تعالى فى شأن هذه الأمور انها محكما للايمان (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب [١]) .

وقال (انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا [٢]) .

فهذا النوع من الابتلاء هو أشد أنواعه وأخطرها كما بينا سابقا وذلك أنه ابتلاء تزل به الأقدام من حيث لا تشعر ولا يحس به كثير من الناس ، ولا يعده ابتلاء وفتنة ، بل ان بعضهم ليعده مكرمة وجائزة له على حسن عمله فى الدنيا ، وأنه مستحق لهذا جدير به ، قال تعالى (فأما الانسان اذا ما أبتلاه ربه ، فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمنى [٣]) (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون [٤]) .

وقال صاحب الجنتين فيما حكاه الله عنه (... ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا [٥]) .

وهذه النعم تعمل عملها فى النفس البشرية [٦] ، فتحملها على الطغيان والأشر والبطر وأحتقار من دونها فى المنزلة ، بل والشعور بالاستغناء حتى عن الخالق - جلا وعلا . قال تعالى (كلا ان الانسان ليطغى أن رآه أستغنى [٧]) .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤ .
(٢) سورة الكهف : آية ٧ .
(٣) سورة الفجر : آية ٥ .
(٤) سورة المؤمنون : آية ٥٥-٥٦ .
(٥) سورة الكهف : آية ٣٦ .
(٦) النفس غير المؤمنة أو ضعيفة الايمان .
(٧) سورة العلق : آية ٦-٧ .

وقال تعالى عمن ظن أن جمعه للمال يخلده فى الدنيا (يحسب أن ماله أخلده[١]) .

وقال سبحانه عن قارون وكيف أطغته دنياه حتى أدعى أنه جدير بها حرى بها لعلمه وفضله (قال انما أوتيته على علم عندى)[٢] .

وقال تعالى فى شأن صاحب الجنتين ، وكيف أغتر بجنتيه فشعر بالكبر والترفع عن صاحبه وأنه أفضل منه وأعز .

فقال (وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا[٣]) .

وقال - جل وعلا - مبينا حال فرعون لعنة ، وكيف أدى به ملكه ونعمته ، وما أتاه الله من زخرف الحياة الدنيا وزينتها الى الطغيان والتجبر على عباد الله - بنى اسرائيل - وعلى نبى الله موسى - عليه السلام - وكيف أستغل ذلك فى بلبلة أفكار قومه وفتنتهم بها وصدهم عن الايمان بموسى - عليه السلام - لأنه فى نظره - أرفع أعلى قدرا من موسى - عليه السلام - فكيف يؤمن قومه بالضعيف ويتركون من يملك هذه النعم ، انها الفتنة العمياء .

قال الله تعالى (ونادى فرعون فى قومه ، قال يا قوم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فأستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين[٤]) .

ان فرعون يخاطب قومه بمنطق العقل والحجة[٥] ، فأيهما خير ؟ بعد هذه الأدلة والبراهين التى أدلى بها فرعون لقومه ، انه يتركهم يجيبون ، فالحجة - فى نظره -

---

(١) سورة الهمزة : آية ٣ .
(٢) سورة القصص : آية ٧٨ .
(٣) سورة الكهف : آية ٣٤ .
(٤) سورة الزخرف : آية ٥١-٥٤ .
(٥) بمنطق العقل والحجة وذلك فى نظره ونظر من قصر عقله عن ادراك حقيقة الرسالة والعبودية لله وربطها بمتع الحياة الدنيا وزينتها ونسى الآخرة وحسابها .

واضحة والدليل ـ فى عقله الفاسد ـ قاطع لا يحتاج الى جواب ، فعندما أستخف قومه بمهرج قوله أطاعوه . فكان فى هذه النعم فتنة له ولهم جميعا .

ولذا دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه عز وجل فيما حكاه الله عنه :

(وقال موسى ربنا انك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)[١]

ولقد كان الشرف والمال سببين من الأسباب التى صدت كثيرا من كفار قريش أن يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وذلك أن بعضهم خشى من كساد تجارته ان كان تاجرا أو النيل من شرفه ان كان من الأشراف ، وذلك أن أبا جهل لعنه الله ، كان اذا سمع بأحد أسلم فان كان له شرف ومنعه أنبه وخزاه ، وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به)[٢] .

وبعض أشرافهم وأغنيائهم قد منعه الكبر من الايمان ، وذلك خشية مشاركة ضعفاء المؤمنين وفقرائهم فى مجالسهم ، فيكون فى هذا ـ على حد زعمهم ـ حط لشرفهم وقدرهم ، ولذا فقد طلب بعض أشراف قريش من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يطرد المستضعفين والموالى عنه علهم فى ذلك يجلسون معه ويستجيبون لدعوته (فأنزل الله ـ عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ...)[٣]

---

(١) سورة يونس : آية ٨٨ .
(٢) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٣٤٢ .
(٣) تفسير بن كثير جزء ٢ / ص ٨١ .

بل لقد أدى بهم ذلك الى أن رأوا أنفسهم على الحق وهؤلاء الضعفاء على الباطل فقالوا فيما حكاه الله عنهم (لو كان خيرا ما سبقونا اليه)[١] .

قال ابن القيم - رحمه الله - (فاذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه الى الايمان ومتابعة الرسول ، وأنف أن يسلم فيكون مثله . وقال أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء)[٢] .

ولقد ابتلى الله - سبحانه وتعالى - بنى اسرائيل بالنعم الكثيرة ، نعمة النبوة ونعمة الكتاب ، ونعمة الملك - ونعمة تفضيلهم على عالمى زمانهم ، ونعمة الرزق الواسع المن والسلوى وتفجير الأنهار بعدد أسباط بنى اسرائيل ، ومع ذلك فما شكروا نعمة الله ولم يقدروهما حق قدرها ، فطغوا وتجبروا على عباد الله ، بل على الأنبياء فسلب الله هذه النعم منهم ، وأورثها قوما آخرين كما أورثهم هم نعم من قبلهم ، الذين طغوا وكفروا بنعم الله ، لكنهم لم يتعظوا بما حل بمن سبقهم .

قال تعالى (ولقد أتينا - بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين)[٣] .

وقال تعالى ممتنا عليهم برزقهم المن والسلوى وتظليل الغمام عليهم ، وسقيهم الماء بعد شدة العطش .

(وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[٤] .

---

(١) سورة الأحقاف : آية ١١ .
(٢) اغاثة اللهفان . جزء ٢ ص ١٦١ .
(٣) الجاثية ١٦
(٤) الأعراف ١٦٠

ولكن بنى اسرائيل كفروا بهذه النعم ، فبدلها الله بالنقم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

أما حال أهل الايمان مع النعم فهم يشكرون المنعم بها ويعلمون حقه فيها ولا يتصرفون فيها الا وفق ما أراده المنعم المتفضل - جل وعلا - ويبذلونها فى طاعته وفى الدعوة اليه - سبحانه وتعالى - كما فعل نبى الله سليمان - عليه السلام - الذى عرف حقيقة النعمة ، وأسندها الى المتفضل بها حقيقة ، فقال :عند ما رأى عظيم ما سخر الله له من الانس والجن والطير .

(قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم)[1] .

ولقد كان فى صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من يملك الجاه والمال والعزة والمنعة أمثال أبى بكر - رضى الله عنه - الذى سخر ماله فى خدمة الدعوة من أول يوم أمن بها ، فكان يشترى الأرقاء من المؤمنين المعذبين فى سبيل الله ويعتقهم لينقذهم مما هم فيه من أذى وفتنة ، فأنزل الله فيه (وسيجنبها الأتقى ،الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاءوجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى)[2] وأمثال عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنهما اللذين عز الاسلام والمسلمون باسلامهما . قال ابن هشام (... فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكبيره عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن عمر قد أسلم فتفرق أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) سورة النمل : آية ٤٠ .
(٢) سورة الليل : آية ١٦-٢١ .

وينتصفون بهما من عدوهم)[١]

وأمثال عثمان - رضى الله عنه - الذى جهز جيش العسرة[٢]، قال ابن اسحاق (... فحمل رجال من أهل الغنى وأحتسبوا وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها[٣] . فقال عنه - صلى الله عليه وسلم - (ما ضر ابن عفان ما فعل بعد اليوم) رواه الامام أحمد والترمذى[٤] .

وأمثال عبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أثرياء المهاجرين والأنصار الذين تبوءوا الدار والايمان وواسوا اخوانهم المهاجرين بأنفسهم وأموالهم ، فرضى الله وأرضاهم ، فلم ينسهم الفقر ولم تشغلهم الدنيا ، ففقيرهم صابر محتسب ، وغنيهم شاكر متصدق . وصدق صلى الله عليه وسلم (عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن أن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له[٥]) رواه مسلم .

وهذه هى حال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين أستقر الايمان فى قلوبهم ، أما حال غيرهم فان الابتلاء بالنعم أشد وطأة عليهم من الابتلاء بالأذى والفقر والمرض فكثير منهم يصمدون أمام الابتلاء بالضراء والمرض والفقر والكفاح والجهاد ولكن القليل هم الذين يصمدون أمام شهوات الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها الزائل يقول الأستاذ /سيد قطب - رحمه الله - (ان الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها أما الرخاء فيرخى الأعصاب يلينها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة . . لذلك

---

(١) السيرة لابن هشام جزء/ ١ص ٣٦٢ .
(٢) فى غزوة تبوك .
(٣) السيرة لابن كثير جزء/ ٤ ص ٦ .
(٤) نفس المرجع .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى جزء/ ١٨ ص ١٢٥ .

يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح حتى اذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء، وذلك شأن البشر الا من عصم الله[1]) .

قال الراغب الأصفهانى[2] (أختيار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا فصارت المنحة والمحنة جميعا بلاء ، والمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة مقتضية للشكر والقيام بحقوق الصبر ، أيسر عن القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلائين[3])

قال أمير المؤمنين[4] (من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله[5])

فكثير من البشر كانوا أيام المحن والشدائد أقوياء فى عقيدتهم متحمسين لدعوتهم حتى اذا جاء الرخاء لانوا وركنوا الى الدنيا ان لم يبطشوا) ويتجبر على عباد الله ويقولوا انما أوتيته على علم أو ورثته كابرا عن كابر[6] .

ولذلك حذر كتاب الله من الانخداع بالحياة الدنيا وزينتها ، فقال تعالى (أعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور[7]) .

---

(١) طريق الدعوة فى ظلال القرآن جمع واعداد أحمد فائز ، جزء/ ١ ص ٢٣٧ .

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ومنزلته فى الثقافة العربية منزلة عظيمة ، وله كتب كثيرة منها الذريعة الى مكارم الشريعة ، تحقيق البيان فى تأويل القرآن ، مشتبهات القرآن ، أفانين البلاغة ، أختلف فى وفاته ما بين سنة ٥٠٢هـ و ٥٦٥هـ ، كما أختلف فى مذهبه فهو عند البعض سنى وعند غيرهم شيعي وعند آخرين من المعتزلة) نقلا عن كتابه المفردات فى غريب القرآن مقدمة الدكتور محمد أحمد خلف الله .

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٧٩ .

(٤) فى كتاب رسالة المسترشدين ، قال على - رضى الله عنه - فيكون المقصود بأمير المؤمنين هنا هو على - رضى الله عنه .

(٥) نفس المرجع .

(٦) أنظر قصة الثلاثة من بنى اسرائيل الذين ابتلاهم الله بالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر فى مختصر صحيح مسلم ص ٥٥٣ .

(٧) سورة الحديد : آية ٢٠ .

وقال سبحانه وتعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)[١] .

وقال تعالى محذرا من فتنة الأموال والأولاد (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم . انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم)[٢] .

قال ابن كثير - رحمه الله - في هذه الآية يقول تعالى انما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه)[٣] .

وقد حذر منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأفعاله وأقواله[٤] ، وكان اشد ما يخافه على أمته فتنة الدنيا والنساء .

ومن أقواله (صلى الله عليه وسلم) : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٥] .

وقوله (صلى الله عليه وسلم) : (... فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم[٦]) .

وقوله (صلى الله عليه وسلم : فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أنه قال : (اذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (أو غير ذلك تنافسون ثم تحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك - ثم تنطلقون الى مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض)[٧] .

---

(١) سورة فاطر : آية ٥ .
(٢) سورة التغابن : آية ٥ .
(٣) تفسير بن كثير جزء ٤/ ص ٣٧٦ .
(٤) حذر منها - صلى الله عليه وسلم - بأفعاله وذلك بزهده - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا فهو - صلى الله عليه وسلم - القدوة الحسنة .
(٥) صحيح البخاري جزء ٤/ ص ١١٦ .
(٦) صحيح البخاري جزء ٤ ص ١١٧ ، وفي صحيح مسلم وتهلككم كما أهلكتهم .
(٧) مختصر صحيح مسلم ص ٥٥٣ .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ محذرا من الانخداع بزخرفها (ان الدنيا حلوة خضره وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا وأتقوا النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء)[1] .

وقال مبينا قيمتها عند الله (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح يعوضه ما سقى كافرا منها شربة ماء) رواه الترمذى وقال صحيح[2].

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبينا أثر الحرص على المال والشرف فى افساد الدين : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

٤- فتنة الشبهات والشهوات والنفس والهوى :

وهذه أعتى وأخطر الفتن وأشدها وقعا على الانسان ، وقد سمى الأستاذ /سيد قطب هذا النوع من الفتن الفتنة الكبرى[4].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى (ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما اذا أقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت فى ضلال سيئ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته

---

(١) مختصر صحيح مسلم ص ٥٥٠ .
(٢) سنن الترمذى جزء ٤ ص ٣٨٣ .
(٣) سنن الترمذى جزء/ ٤ ص ١٦ وقال الألبانى صحيح ،أنظر صحيح الجامع الصغير جزء / ٥ ص ١٤٣ برقم ٥٤٩٦ .
(٤) أنظر كتاب الدعوة فى ظلال القرآن جمع واعداد احمد فايز جزء/ ١ ص ٢٢٤ .

وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس) ثم قال وهذه مآلها الى الكفر والنفاق وهى فتنة المنافقين وأهل البدع[١]) .

وهذا النوع مرتبط بما قبله يتأثر به ويؤثر فيه ، فالمال وسائر النعم لا تسبب البطر والكبر ، للانسان وتشغله وتلهيه عن ربه ، الا اذا كان فى نفسه قابلية لذلك وعنده من حب الشهوات مايجرفه لينساق وراء تيار الدنيا ولذاتها ، وقد يكون عنده من ضعف البصيرة ومن الشبه مايعتم عليه رؤية الحق فى استعمال هذه النعم ،فهو كما قال (صلى الله عليه وسلم)فى الحديث السابق (وعبد أتاه الله مالا ولم يرزقه علما فهذا بأخبث المنازل[٢]) . بل ان تأثير هذا النوع على الأنواع السابقة أشد وأوضح من تأثره بها .

فهذه الفتن عوائق فى الطريق وشبهات تسبب التعثر والنكوص أحيانا ، وتشد الانسان بالأرض وتثقله عن مواصلة الطريق الى الله ، وتغض بصره عن التطلع الى السماء والتطلع الى الامام وتنزله الى مستوى أدنى من مستوى الحيوان (إنهم الا كالأنعام بل هم أضل[٣]) . وبتأثيرها يبدأ الانحراف فما ضل من ضل الا ووراء ضلالته شبهة أو شهوة وهوى . وهى اذا تركت ولم يكبح جماحها أدت الى الضلال والكفر ولقد ذم الله من أتبع هواه وشهوته فى مواضع عدة من كتابه العزيز .

قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا[٤])

---

(١) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جزء ٢/ ص ١٦٥ .
(٢) سنن الترمذى جزء ٣ ص ٣٨٥ برقم ٢٤٢٧ ،أنظر الحديث بكامله ص ١٠٠ .
(٣) سورة الفرقان : ٤٤ .
(٤) سورة مريم : ٥٩ .

وقال تعالى : (وأتل عليهم نبأ الذى اتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)[1]

ولقد سمى الله الهوى ألها يعبد من دونه وذلك لأن الهوى يعمى ويصم صاحبه عن رؤية الحق وسماعه ، قال تعالى (أفرأيت من أتخذ الهه هواه)[2] وكان السلف يقولون (أحذروا من الناس صنفين صاحب هوى فتنة هواه ، وصاحب دينا قد أعمته دنياه)[3]

قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة واكثر أموالا وأولادا فأستمعوا بخلاقهم فاستمعتم بخلاقكم كما أستمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون)[4] فجمعت هذه الآية فتنة الشهوات وهى الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا ، وفتنة الشبهات وخضتم كالذى خاضوا وهو الخوض بالباطل .

قال ابن القيم - رحمه الله) : (فأشار سبحانه فى هذه الآية الى ما يحصل به فساد القلوب والأديان عن الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل)[5] .

وقال تعالى فى بيان حقيقة النفس (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى)[6] .

وعنه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يدعو بهذا الدعاء (اللهم الهمنى رشدى واعذنى من شر نفسى)[7] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٥-١٧٦ .
(٢) سورة الجاثية : ٢٣-٢٤ .
(٣) أقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٥ .
(٤) سورة التوبة : آية ٦٩ .
(٥) اغاثة اللهفان : ص ٢١ -١٦٦ .
(٦) سورة يوسف : آية ٥٣ .
(٧) رياض الصالحين ص ٥٦ .

وجاء فى الحديث (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[١]) .

ومن ضعف سلطانه على نفسه وهواه وشهوته فهو لما سواها أضعف ، فان الانسان لا يثبت أمام الأذى والمشاق والشدة حتى يثبت أمام شهواته وهواه ، قال ابن القيم - رحمه الله : (والمقصود أن الله سبحانه وتعالى فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة وفتن أولئك بهم فكل من النوعين فتنة فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها ، فان تدارك نفسه بالتوبة النصوح والا فبسبيل من هلك ولهذا قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : (ما تركت بعدى فتنة أضر من النساء على الرجال)[٢] . فالعبد فى هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة بالسوء وقرنائه ومايراه وما يشاهده[٣]) .

وقال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى[٤]) .

فجهاد النفس والشهوة والهوى أعظم من جهاد الأعداء ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (ليس الشديد بالصرعه ان الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب[٥]) وذلك أن جهاد الأعداء فى مكان مخصوص وزمن مخصوص يأخذ له الانسان عدته ثم يحكم الله بينه وبين عدوه فيستريح بعد ذلك ، إما النصر أو الشهادة . أما جهاد النفس فهو جهاد طويل مستمر فى كل زمان وتحتاج الى علاج مستديم وتربية وحمل على طاعة الله وصبر عن معصيته فان أنتصر فهو نصر لا تؤمن أن تعقبه الهزيمة ، وذلك ما كان يخشاه

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ، قال النووى حديث حسن صحيح ص٣٣٨ .
(٢) مختصر صحيح مسلم ص ٥٥٠ برقم ٢٠٦٧ .
(٣) اغاثة اللهفان : جزء ٢ ص ١٦٤ .
(٤) سورة النازعات : آية ٣٧-٤١ .
(٥) صحيح البخارى جزء ٤/ ص٦٨ .

صفوة الخلق بعد النبيين أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والسلف الصالح وقد كان الامام أحمد وهو في سياق الموت يقول (لا بعد فسأله ابنه عن سبب ذلك فقال ان ابليس قائم حذائي وهو عاض أنامله يقول فتني يا أحمد وأقول لا بعد لا بعد[١]) .

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة[٢]) رواه مسلم .

وان أنهزم أمام الشهوات والهوى وقع في الشر والهلاك ان لم تداركه الرحمة بالتوبة والنهوض مما هو فيه والانهزام أمام الشهوات أشد وأخطر من الانهزام في المعركة فالانهزام أمام الشهوات فيه الهلاك في الدنيا والآخرة .

وقال تعالى في وصف عباده المتقين أئمة الهدى الذين أنتصروا على شهواتهم وكيف كافأهم الله بجعلهم أئمة ، وذلك لما أنتصروا على الشبهات والشهوات .
قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون[٣]) .
قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات[٤])
وفي الحديث المرسل عنه (صلى الله عليه وسلم : (ان الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[٥]) .

ووصف بعضهم الامام أحمد - رحمه الله تعالى - (فقال رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها[٦]) .

وقال تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصو بالحق وتواصو بالصبر[٧]) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي جزء ١١ ص ٣٤١ .
(٢) مختصر صحيح مسلم ص ٤٨٨ برقم ١٨٤٥ .
(٣) سورة السجدة : آية ٢٤ .
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، مخالفة أصحاب الجحيم — ص ٢٥ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) المرجع السابق .
(٧) سورة العصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الثاني : ركائز الثبات في الابتلاء :

ان البشر يختلفون في استعداداتهم وفي مقدار تحملهم ووقوفهم أمام الابتلاء والفتن ، ولذا فهم مع الابتلاء على نوعين بعضهم يقف صلبا صامدا أمام أنواع الابتلاء جميعها فلا تنال منه ويخرج من الفتنة كما يخرج الذهب عندما يفتن بالنار صافيا خالصا ، فهذا حال من ثبته الله ، وبعضهم يسقط أمام الفتن وينجرف وراءها . فهذا حال من ضعفت عزيمته وقل دينه .

وفي الحديث (عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز فذلك الذي نجاه الله تعالى من السيئات ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذي يشك وبعض الشك ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي قد فتن) . رواه الحاكم في المستدرك ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي على صحته فقال صحيح .(١)

وفي الحديث الذي رواه مسلم ـ رحمه الله ـ عن حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها(٢) نكت فيه نكتة سوداء ، وأي

---

(١) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص ٥١ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، وهو الذي ذكره في الحاشية .

(٢) أشربها ، أي دخلت فيه دخولا تاما وألزمها وحلت فيه محل الشراب .

قلب أنكرها نكت فيه نكته بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا[١] كالكوز مجخيا[٢] لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه.[٣]

وقال تعالى : (... واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون)[٤]. وفى الحديث الذى رواه الامام أحمد - رحمه الله - عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يكثر أن يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك). قال : فقلنا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟. قال نعم . ان القلوب بين اصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء.[٥]

فما دام الأمر كذلك وأن ليس هناك أحد بعد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معصوم من الفتنة ولا آمن من مكر الله عز وجل (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون)[٦]. وفى الحديث المتقدم (ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار . الحديث)[٧]. فما هى الأمور والاحتياطات التى يتخذها المسلم لنفسه فى هذه الدنيا المعرضة للابتلاء والفتن ليبقى ثابتا على عقيدته راسخا فى ايمانه صلبا فى دعوته صامدا أمام أعدائه وأولهم نفسه وشهوته وهواه وشيطانه من الانس والجن الذين يوحى

---

(١) أسود مربـاد أى شـدة البياض فى سواد .
(٢) الكوز مجخيا أى منكوسـا .
(٣) مختصر صحيح مسلم للمنذرى ص ٥٢٩ برقم ١٩٩٠ .
(٤) الأنفـال - آية ٢٤ .
(٥) تفسير ابن كثير - جزء ٢ ص ٢٩٨ .
(٦) الأعراف - آية ٩٩ .
(٧) راجـع الحديث ص (١١٣)

بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا . هذا ماسنتحدث عنه انشاء الله فى هـذا البحث بايجـــاز ، وسنقسمها الى ثمانية ركائز وهى أهمها والا فهى أكثر وأعـم من هذه السبعة وهى كما يلى :

١ ــ تقوى الله عز وجل .

٢ ــ محبتـــــه .

٣ ــ الصـــبر .

٤ ــ الصـــــلاة .

٥ ــ الذكـــر والدعاء .

٦ ــ الفقه فى الشـــرع .

٧ ــ الزهـــد فى الدنيـــا .

٨ ــ الجهـــاد .

١ ــ التقـــوى :

والتقوى هى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وتتم بفعل أوامره واجتناب نواهيـــه .(١)

ويقول عنها سيد قطب ــ رحمه الله ــ هى حساسية فى الضمير وشفافيـــة فى الشعور ، وخشية مستمرة وحذر دائم وتوق لأشواك الطريق ...(٢) وهى وصيـــة الله لعبـاده . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون).(٣)

---

(١) دليل الفالحين . شرح رياض الصالحين جزء ١ ــ ص ٢٤٦ بتصرف .
(٢) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ص ٢١٥ .
(٣) سورة آل عمران ــ آية ١٠٢ .

كما أنها وصية الأنبياء لأقوامهم ، فنوح وهود وصالح كل منهم يقول لقومه فيما حكاه الله عنهم (فأتقوا الله وأطيعون)[١] . وقال محمد (صلى الله عليه وسلم) (اتق الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[٢] . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وكان صلى الله عليه وسلم يسأل ربه التقوى فى كل حين حتى فى أسفاره صلى الله عليه وسلم . ففى الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول (اللهم انى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)[٣] . وفى دعائه صلى الله عليه وسلم فى السفر (... اللهم انا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى ...)[٤] . رواه مسلم .

وهى وصيته لأصحابه اذا أرادوا سفرا ووصية أصحابه بعضهم لبعض عند ما يفارق بعضهم بعضا وماذلك الا لما للتقوى من أثر فى النفوس والقلوب فهى الدافع لعمل الصالحات والمانع من عمل المنكرات وهى الحارس اليقظ الأمين على الضمير أن يغفل وعلى القلب أن يلهو وعلى الجوارح أن تضعف عن العمل وهى الكابح لجماح النفس أن ترتع وتنجرف وراء الشهوات انها التقوى التى تغلغلت فى قلب بلال رضى الله عنه حتى ثبت أمام التعذيب فى رمضاء مكة وجعلته وهو فى أضيق حال وأحرجها يئن تحت وطأة الصخرة العظيمة فى الحر الشديد ومع ذلك يقول أحد أحد إنها التقوى التى تمكنت من قلب يوسف

---

(١) سورة الشعراء : آية ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ .
(٢) سنن الترمذى جزء ٣ - ص ٢٣٩ برقم ٢٠٥٣ .
(٣) مختصر صحيح مسلم ص ٤٩٤ برقم ١٨٧٠ .
(٤) رياض الصالحين ص ٤٠٧ .

عليه السلام - وجعلته يقول وبريق الشهوات أمام عينيه يلمع وهو الشاب المكتمل الفتوة والقوة والرجولة ومع ذلك يقول (معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون)[١] . ولو رحنا سنتعرض الأمثلة لطال بنا المقام ولكن نكتفى بهذين المثلين اللذين يوضحان عمل التقوى فى النفوس. كما أن التقوى تمنح الفرقان الذى به يفرق المسلم بين الحق والباطل . فبذلك يصمد أمام الشبهات والشهوات . قال تعالى : (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)[٢].

قال ابن كثير فى هذه الآية (فان من أتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه ومحوها)[٣] . والتقوى سبب لتفريج لهم وكشف الغم وتنفيس الكرب. قال تعالى (... ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا)[٤] . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه يقول فى هذه الآية (ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة)[٥] . وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال (ان أجمع آية فى القرآن ، ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وان أكبر آية فى القرآن فرجا (ومن يتق الله يجعل له مخرجا)[٦] .

---

(١) سورة يوسف : آية ٢٣ .
(٢) سورة الأنفال : آية ٢٩ .
(٣) تفسير ابن كثير . جزء ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) سورة الطلاق : آية ٢ — ٣ .
(٥) تفسير ابن كثير جزء ٤ ص ٣٨٠ .
(٦) " " " " " " " "

٢ - محبـــة الله عز وجل :

ان المحبة تورث فى القلب التعلق بالمحبوب وطاعته فيما يأ مر به وينهى عنه انها حب مراد المحبوب وكره مايكره وهذه هى علامة الحب وبغيرها فلا اعتبـــار للمحبـــة)

كما قال الشاعـــر :

تعصى الاله وأنت تظهر حبـــه هذا محال فى القياس بديـــع
لو كان حبك صادقا لأطعتـــه ان المحب لمن يحب مطيـــع

هذا شأن من يحب بشرا مثله لا ينفع ولا يضر الا بأمر الله عز وجل . الطاعة والانقياد لأوامره والابتعاد عن نواهيه والاستهانة بما يصبه فى ذلك من تعـــب ونصب بل ويستعذب العذاب فى سبيل محبوبه .

كما قال بعض المحبين :

ليس المحب الذى يخشى العقاب ولو كانت عقوبته فى فجوة النار
بل المحب الذى لا شىء يفزعـــه أو يستقر ومن يهواه فى الدار

وكما قال آخر :

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلهـــا أحب اليك أم الدنيا ومافى طواياها ؟
لقال تراب من غبار نعالهـــــا أحب الى نفسى وأشفى لبلواهـــــا

فانظر كيف صحت محبة البشر للبشر . لقد استعذب العذاب ، وقـــد رخصت عنده الدنيا بحذافيرها وزهدت فى عينه ليس من أجل محبوبه فحســـب بل من أجل تراب من غبار نعالها ! ! .

فما بالك بمحبة المؤمن لخالقه ورازقه الذى بيده النفع والضر (والذين آمنوا أشد حبا لله)[١] .

ماذا تصنع المحبة فى نفوسهم؟ انها تضع كما قالت رابعة العدوية[٢] .

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك تصفو والآنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك ... عامرو بينى وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

ومحبة الله توجب طاعته سبحانه وتعالى وترك معصيته . واتباع رسله قال تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)[٣] . ومحبة الله عز وجل تجعل المؤمن يستهين بل يستعذب كل ما أصابه فى سبيل الله عز وجل . فلذا يقف أمام الابتلاء والفتن صامدا شامخا فلا تنال منه لأنه آثر رضا الله على رضى نفسه وشهواته ومحبة الله على نفسه وشهواته .

وفى الحديث عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى (صلى الله عليه وسلم) (ثلاث من كن فيه وجد بهم حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا الله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار) . متفق عليه[٤] . وهذا لفظ البخارى . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ...)[٥] الآية .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٦٥ .
(٢) هى البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة أم عمرو رابعة بنت اسماعيل عاشت ثمانين سنة ، وتوفيت سنة ثمانين ومائة . سير أعلام النبلاء جزء ٨ ص ٢١٥ .
(٣) سورة آل عمران : آية ٣١ .
(٤) صحيح البخارى ، جزء ١ ص ١٢ .
(٥) سورة المائدة : آية ٥٤ .

وقد توعد الله من أثر أهله وعشيرته وماله وراحته على حب الله ورسوله يقول تعالى : (قل ان كان أباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين[١] .

وفى الصحيح عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين)[٢] .

ان حب الله يورث التجرد والاخلاص لله بحيث لا يعمل المرء الا لله وفى ذات الله لا لحساب نفسه ولا لشهوته والحب لله يورث السرور والغبطة فى النفس والراحة والطمأنينة . فبالتالى يستسهل الصعب ويستلذ العذاب ويستهين بالشدائد مادامت فى سبيل الله ولله .

ولعلى أترك التعبير فى هذا المقام لابن القيم رحمه الله تعالى . فقد صوره أحسن تصوير وأبدعه فى قوله رحمه الله تعالى وفى ضرب الأمثله على ذلك حيث يقول (فمحبته — أى محبة الله — نعيم النفوس وحياة الأرواح وسرور النفوس وقوت القلوب ونور العقول وقرة العيون وعمارة الباطن فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من محبته والأنس به والشوق الى لقائه والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة والنعيم الذى يحصل بذلك أتم من كل نعيم واللذه

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٤

(٢) صحيح البخارى — جزء ١ ص ١٢ .

التى تناله أعلى من كل لذة . كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله (انه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها ان كان أهل الجنة فى مثل هذا انهم لفى عيش طيب) . وقال آخر (انه ليمر أوقات يهتز القلب فيها طربا بأنسه بالله وحبه له) . وقال آخر (مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب مافيها[١]) وقال آخر (لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف[٢]) أهـ .

وقد كان ابن تيميه رحمه الله تعالى[٣] يصمد أمام عدوه بل ويتحداه بقوله :

(أنا جنتى وبستانى فى صدرى أنى رحت فهى معى لا تفارقنى ، أنا حبسي خلوة وقتلى شهادة واخراجى من بلدى سياحة)[٤] . وكان يقول وهو فى السجن وما أكثر ماسجن رحمه الله . (المحبوس من حبس قلبه عن الله والمأسور من أسره هواه)[٥] . وقد قال عنه تلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى (وعلم الله مارأيت أحداً أطيب عيشا منه قط مع ماكان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدهما ومع ماكان فيه من الحبس والتهديد والارهاق ، وهو مع ذلك كان من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا وأقواهم قلبا وأسرهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا اذا اشتد بنا الخوف وساءت الظنون وضاقت بنا الأرض آتيناه فما هو الا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة وطمأنينة . وكان يقول ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لايدخل جنة الآخرة[٦] . هذا هو فعل محبة الله وتأثيرها فى

---

(١) أطيب مافيها يقصد حب الله والأنس به .
(٢) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم . جزء ٢ ص ١٩٧ .
(٣) ليس بقوته ولكن بما يجده فى قلبه من حب الله ورسوله .
(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٥٠ .
(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٥٠ .
(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٥٠ .

قلوب محبيه ونفوسهم . فقد قلبت الشدة عندهم رخاء والتعب عندهم راحة والبؤس نعيم والسجن خلوه بالله والاخراج من البلد سياحة فى أرض الله ودعوة الى الله بل والقتل شهادة أمنيتهم التى يطلبون ولها يسعون ، فتغلبوا على الفتن ونجحوا فى الابتلاء وصمدوا أمام الأعداء .

ومحبة الله هى التى جعلت خليل الرحمن وحبيبه وصفوته من خلقه محمد صلى الله عليه وسلم - يتحمل الأذى فى سبيله ، ويقول وهو فى أضيق حالة مرت به صلى الله عليه وسلم - وذلك عندما رجع من الطائف وقد كذبته ثقيف وأغروا به صلى الله عليه وسلم سفاءهم وعاد الى مكة ليدخلها مرة أخرى مكذبا مطاردا صلى الله عليه وسلم - كما خرج منها وفى هذا الضيق وهذه الشدة يقول - صلى الله عليه وسلم (... ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى)[1] . انه لا يهتم لما أصاب انما همه وخوفه أن يكون عز وجل قد غضب عليه . وهى المحبة التى دفعت خبيباً أن يقول متحديا أعداءه وهو فى قبضتهم ليصلبوه .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى[2]

وهى التى جعلت حرام بين ملحان يقول عندما ضربوه (فزت ورب الكعبة)[3] ومحبة الله ورسوله هى التى جعلت الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم وهم فى أحرج موقف مر بهم عندما تجمعت الأحزاب لحربهم يرتجزون وهم يحفرون الخندق فيقولون نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا ، فصمدوا أمام عدوهم حتى كشف الله مابهم .

---

(١) جزء من دعائه الطويل عند مرجعه فى الطائف انظر السيرة لابن هشام. جزء ٢ ص ٣٠

(٢) صحيح البخارى . جزء ٣ ص ٢٨ .

(٣) " " " ٣ ص ٢٩ .

ومحبة الله ورسوله هى التى جعلت بلال بن رباح رضى الله عنه وهو فى سياق الموت يقول عندما قالت زوجته واحزناه قال بل وافرحتاه غدا نلق الأحبه محمدا وحزبه (١) .

٣ - الصبر :

الصبر هو زاد المؤمنين عموما والدعاة منهم على وجه الخصوص. فطريقهم طويل وشاق ومحفوف بالأشواك والعقبات وهم أكثر من غيرهم تعرضا للأذى والابتلاء والفتن فهم محتاجون الى مزيد من الصبر، الصبر على طول الطريق ومشقته الصبر على الأذى ، الصبر أمام الفتن والمغريات والشهوات، الصبر على التواء النفوس وتلكأها فى اجابة الداعى الى الله ومعالجتها وتربيتها . الصبر على الجهاد ومايستوجبه من بذل النفس والمال . الصبر على أهل الباطل وغرورهم بباطلهم وانتفاخ الباطل أحيانا وغلبته على الحق وأهله ، الصبر أمام العروض والمساومات وأنصاف الحلول . كل هذه الأمور والاعتبارات تحتاج الى صبر.. صبر طويل متمكن من القلب والنفس لا صبر ساعة ولا سويعات انه صبر الدهر كله حتى بعد الانتصار فالأمر محتاج الى صبر.. صبر على النصر وعلى تبعات النصر وعلى عدم الاغترار به وعلى المحافظة عليه ومقاومة النفس وعدم ركونها الى الدعة والراحة بعد ذلك الجهاد الطويل الشاق . فان النفوس ان تركت لانت ورتعت وان قومت استقامت و صلبت، ولهذا نجد القرآن مليئا بآيات الصبر. والحث عليه خاصة فى الآيات المكية وذلك لما تستوجبه وتحتاجه تلك العصبة المؤمنة فى مكة .لكى تصبر وتصمد أمام الباطل . قال تعالى (فاصبر

---

(١) سير اعلام النبلاء للذهبى . جزء ١ ص ٤٩٢

كما صبر أولوا العزم من الرسل)[1] الآية . (واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا)[2] . (فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب)[3] (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)[4] . (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)[5] . (واستعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين)[6] . والآيات فى الحث على الصبر والأمر به وبيان فضله كثيرة جدا فى كتاب الله عز وجل وذلك لما للصبر من أهمية فى حياة المؤمن فبالصبر تعمل الطاعات . قال تعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها)[7] الآية وبالصبر تجنب المحارم وتترك الشهوات . قال ابن تيميه — رحمه الله تعالى — (... فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات)[8] .

وبالصبر تتحمل المشاق والمصائب ، وفى الحديث . (... عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . الحديث)[9] . قال ابن القيم فى الصبر (وأما حقيقته أى الصبر — فهو خلق فاضل من أخلاق النفس تمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل وهو قوة من قوى النفس التى بها صلات شأنها وقوام أمرها . وقيل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب وقيل هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى)[10] . وبالصبر يتحمل الأذى فى سبيل الله ، ويصمد المؤمن أمام الابتلاء بالاعداء وأذاهم وفتنتهم له عن دينه . قال تعالى (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك، ان ذلك من عزم الأمور)[11] .

---

(١) الأحقاف ٣٥ .
(٢) المزمل ١٠ .
(٣) ق ٣٩ .
(٤) البقرة ١٥٥ .
(٥) الشورى ٤٣ .
(٦) البقرة ١٥٣ .
(٧) طه ١٣١ .
(٨) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحابه محمد — ص ٢٥ .
(٩) مختصر صحيح مسلم ٥٥٦ برقم ٢٠٩٢ .
(١٠) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص١١ .
(١١) سورة لقمان : آية ١٧ .

وقد قسم العلماء — رحمهم الله تعالى — الصبر الى ثلاثة أقسام :
صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصيته ، وصبر على أقداره المؤلمة .

والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فلا ايمان لمن لاصبر له ، وقد كان صلى الله عليه وسلم — يوصى أصحابه بالصبر وذلك لما يعلمه — صلى الله عليه وسلم — من ضرورة الصبر وأهميته وذلك لما يصيبهم فى سبيل الله عز وجل ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) (... والصبر ضياء ...)(١) رواه مسلم وقوله (... ومن يتصبر يصبره الله ...) وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر) متفق عليه(٢) . وقد مر صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكى عند قبر فقال (اتقى الله واصبرى ...) الحديث . متفق عليه(٣) .

والصبر هو الذى جعل نوحا عليه السلام يعيش مع قومه مدة طويلة ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله ويستعمل معهم شتى الأساليب ، ومع ذلك فلا يزيدهم دعاؤه عليه السلام الا فرارا ولم يؤمن معه الا قليل .

وهو الذى جعل موسى عليه السلام يعيش مع بنى اسرائيل يدعوهم الى الله ويستمر معهم فى التربية ومعالجة النفوس ويقودهم الى الخير والصلاح ، ومع ذلك لا يجد منهم الا التلكؤ والتباطؤ فى تنفيذ أوامره — عليه السلام — بل والشك فيها ويتحمل آذاهم له عليه السلام وانحرافاتهم التى مايكادون يخرجون من انحراف الا ويقعون فى آخر وكثرة تساؤلاتهم التى تنم عن عدم الاستجابة والاخلاص له ولدعوته . قال صلى الله عليه وسلم (يرحم الله موسى أوذى بأكثر من هذا فصبر)(٤).

---

(١) رياض الصالحين ص ٢٥ .
(٢) " " ص ٥ .
(٣) " "
(٤) صحيح البخارى — جزء ٢ ص ٢٤٦ .

وهو الذى جعل القلة فئ جنود طالوت الذين مروا بعدة ابتلاءات قبل دخول المعركة فنجحوا يصمدون أمام عدوهم (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلما مما يشاء)[١] . وهو الذى جعل أيوب عليه السلام يتحمل المرض والفقر زمنا طويلا يتحمل المرض الذى أصاب جميع جسمه ولم يبق منه الا قلبه ولسانه ومع ذلك فهو يذكر الله فى كل حينه ، فى صباحه ومسائه وليله ونهاره ، وعندما اشتد عليه الألم وضاق به الحال يتوجه الى ربه فى غير تبرم ولا ضجر بدعاء رقيق . قال تعالى (وأيوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)[٢] .

والصبر هو الذى جعل رسول الله وصحابته يعيشون فى الخندق قريبا من شهر فى أقسى حالات البرد والجوع والخوف صامدين أمام عدوهم لم يضعفوا ، ولم ينهزموا . والخلاصة أن الصبر ضرورى للمسلم خاصة الداعية ، ضرورة الماء والنفس ومن لاصبر له فما أسرع مايقع عند أول عثرة ويسقط عند أول صدمة ويزيغ عند أول بارقه من شهوة وهوى وغيرها وغيرها من المغريات والملهيات . ومسك الختام فى الصبر قوله تعالى (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[٣] .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٠ — ٢٥١ .
(٢) سورة الأنبياء : آية ٨٣ .
(٣) سورة الرعد : آية ٢٤ .

٤ — الصـــــلاة :

ذكرنا فى الصبر أنه زاد الدعاة وأنه ضرورة لهم ضرورة الماء والنفس ولكـــن الانسان بما ركب الله فيه من ضعف وشهوة ربما تضعف عزيمته وينفذ صبره أمام طول الطريق وعقباته وأشواكه. وقد علم الله ذلك فى الانسان (وخلق الانسـان ضعيفا)[١]. فأمده سبحانه وتعالى بزاد ووقود يقوى صبره الذى لاغنى له عنـــه لمواجهة مايعترضه فى الطريق ويقوى عزيمته ان ضعفت ذلك هو الصلاة الرافـــد الأعظم الذى يمد الصبر ويغذيه . ولذا فقد قرنت الصلاة مع الصبر فى أكثر مـــن موضع فى القرآن . قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين)[٢]. وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصـــلاة ان الله مع الصابرين)[٣].

فالصلاة هى الصلة القوية بين العبد وربه ، بين العبد الضعيف الذى تتجاذبه الأهواء والشهوات والتيارات والأعاصير ، وبين خالقه سبحانه وتعالـــى الذى له ملك السموات والأرض والذى قلوب العباد بين أصبعين من أصابعـــه يقلبها كيف يشاء . فلابد للمؤمن من هذه الصلة لكى يثبت على الطريق ، ولكـــى يصبر على أشواك الطريق ولكى يسير الى الله مستقيما بقلب سليم ينجو به مـــن عذابه يوم القيامة .

وقد جعل الله فى الصلاة ســرا عظيما من الأسرار ذلكم أنها تنهى عـــن الفحشاء والمنكر ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى . والانسان ليس معصومـا

---

(١) سورة الرعـد : آية ٢٤ .
(٢) سورة البقرة : آية ٤٥ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٥٣ .

فـــى هـــذه الحياة الدنيا الا من اتصل بالله عز وجل والتجأ الى قوته وقدرتـــه سبحانه وتعالى من أعظم المواقف التى تصل العبد بربه . لذا كانت تنهى عن الفحشاء والمنكـــر . (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكـــر)[١] .

والصلاة تمنح القلب نورا والبدن قوة وعزيمة وتفيض فى النفس الطمأنينة والرضى والثقة واليقين . ولذلك وجه الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فى أول البعثة وفـــى بداية الصراع مع قريش ، وبداية سلوك الطريق المجهد المضنى ذى الأشواك والعقبات الى قيام أكثر الليل وذلك زاده فى هذا الطريق الطويل الذى يجعله يتحمل القـــول الثقيل الذى أنيط به حمله وتبليغه لبيئة لاعهد لها به ولا صلة لها به . قال تعالـــى : (يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القـــرآن ترتيلا) . لماذا هذا القيام؟ ! (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا)[٢] . فقام صلى الله عليـــه وسلم حتى تفطرت قدماه الشريفتان وشعر صلى الله عليه وسلم بأهمية هذا القيـــام فكان (اذا حزبه أمر صلى)[٣] . وقد وجد بها راحته وقرة عينه . فكان صلى الله عليـــه وسلم يقول (.. وجعلت قرة عينى فى الصلاة) . فكان صلى الله عليه وسلم دائـــم الصلة بربه عز وجل ، يستعينه ويستغفره فى أصعب الظروف التى مرت به صلى اللـــه عليه وسلم ، ومرت بالمسلمين وذلك فى الخندق حيث شدة البرد والجوع والخـــوف فكان يصلى من الليل ولا يغفل عن ربه عز وجل . ففى حديث حذيفة رضى الله عنـــه (... والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا[٥] من الليل)[٦] . الحديث .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٥ . (٢) سورة المزمل : آية ٥ .
(٣) انظر صحيح الجامع الصغير — جزء ٤ ص ٢١٥ برقم ٤٥٧٩ .
(٤) صحيح الجامع الصغير: جزء ٣ ص ٨٧ برقم ٣١١٩ .
(٥) هويا من الليل أى جزءا من الليل .
(٦) جزء من حديث طويل لحذيفة رضى الله عنه . رواه ابن اسحق . راجعه فـــى السيرة لابن هشام . جزء ٣ - ص ٣٥٠ .

والصلاة فيها الفلاح والنجاح والهدى من رب العالمين فى الدنيا والآخـــــرة (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون[١] ..) . (الذين يقيمون الصـــلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون[٢]) .

وفيها التثبيت والطمأنينة فى حالات الغنى والفقر والسراء والضراء .

(ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين[٣] ..)

وفيها أسباب التمكين فى الأرض (الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتو الزكاة[٤])

وفيها العصمة والثبات أمام الشهوات والمنكرات (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[٥])

وفيها الطهارة والزكاة للنفوس بتكفير الذنوب ومحو الخطايا فعن جابر - رضى الله عنه - قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :(مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمـــر على باب أحكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات[٦]) رواه مسلم .

وهى سمة الصالحين وعنوان حب رب العالمين والخوف منه والطمع فيما عنده (كانـــوا قليلا من الليل ما يهجعون[٧]) .

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون[٨]) .

---

(١) ســـورة المؤمنون : آيـة ١-٢ .
(٢) سورة لقمـان : آيـة ٣-٤ .
(٣) ســـورة المعارج : آيـة ١٩-٢٢ .
(٤) ســـورة الحـج : آيـة ٤١ .
(٥) ســـورة العنكبوت : آيـة ٤٥ .
(٦) صحيح مسلم بشرح النووى جزء ٥ ص ١٧٠ .
(٧) ســـورة الذاريات : آيـة ١٧ .
(٨) ســـورة السجدة : آيـة ١٦ .

وعنوان الشكر لله - عز وجل - عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا (١) متفق عليه .

والصلاة لا تؤتى ثمارها اليانعة فى التثبت فى الابتلاء والفتن وفى التزكية والطهارة والطمأنينة النفس وراحتها كما سر الا اذا أديت أداء حقيقاً بكامل أركانها وواجباتها وسننها وبكامل الخشوع والخضوع والتذلل لله رب العالمين فعندئذ يجنى المسلم والداعية على وجه الخصوص هذه الثمار بتوفيق الله له .

٥- الذكر والدعاء :

ومن أعظم الذكر وأشرفه وأفضله وأشده تأثيرا على القلوب كلام الله - عز وجل - الذى أوحى الله الى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن يتمسك به ويعتصم به قال تعالى (فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (٢) .

وسماه الله تعالى روحا لأنه فيه حياة للقلوب وجعله نورا لأنه نور يهدى الحائرين والتبائهين الى سلوك السراط المستقيم .

قال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض الا الى الله تصير الأمور (٣) .

---

(١) رياض الصالحين ص ٤٦٢ .
(٢) سورة الزخرف : ٤٣-٤٤ .
(٣) سورة الشورى : آية ٥٢-٥٣ .

وقد تكفل الله لمن أتبعه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخـــرة .

قال تعالى (. . . فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى[١]) .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى[٢])

وقد وجه الله نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) أن يتلو كتابه . (وأمرت أن أكون مـــن المسلمين وأن أتلو القرآن[٣]) .

(وأتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دون ملتحدا[٤]) .

وقد حض (صلى الله عليه وسلم) أمته على تلاوة القرآن فى أحاديث كثيرة نكتفى بواحـد منها ، عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال (قال رسول الله من قرأ حرفا من كتـــاب الله فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف[٥]) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وما ذاك الا لأن فيه الهدى والنور وحياة القلوب وشفاء الصدور وكشف الهموم والغمـــوم وعصمة عن الضلال والزيغ .

فلذلك لابد للداعية بل لكل مسلم من أن يجعل له حزبا من كتاب الله يتلـــوه ويتدبر معانيه بصفاء قلب واخلاص نية فانه لايمنح كنزة وشاره الا لمن أقبل عليه بقلبـــه وقالبه ، قال تعالى (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو لقى السمع وهو شهيد[٦])

---

(١) ســـورة طـــه : آيـــة ١٢٣-١٢٤ .
(٢) صحيح الجامع الصغير جزء ٢ / ص ٣٩ برقم ٢٩٣٤ .
(٣) ســـورة النمل : آيـــة ٩١-٩٢ .
(٤) للـــورة الكهف : آيـــة ٢٧ .
(٥) سنن الترمذى جزء ٤ / ص ٢٤٨ برقم ٣٠٧٥ .
(٦) ســـــورة ق : آيـــة ٣٧ .

وقد كان الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ لا يتجاوزون عشر أيات حتى يعلموا ما فيهن ويعملوا بهن فعلموا العلم والعمل معا .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال (ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله اذ الناس نائمون ونهاره اذ الناس يفطرون وبكائه اذ الناس يضحكون وورعه اذ الناس يخلطون وصمته اذ الناس يخوضون وخشوعه اذ الناس يختالون وحزنه اذ الناس يفرحون)[١] وبهذه الروح وبهذا التدبر والتفكر فعل القرآن بالسلف ـ رضى الله عنهم وأرضاهم ـ فقطفوا ثماره هدى فى الدنيا وأنسا فى القبر ونعيما فى الجنة .

كما أن للأذكار والأدعية المأثوره عنه (صلى الله عليه وسلم) قيمة كبرى وأهمية خاصة للدعاة وقد أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يديم ذكره ، قال تعالى (ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)[٢]

(فأذكرونى أذكركم)[٣] . (وأذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[٤] .

وقال (يا أيها الذين أمنوا اذا لقيتم فئة فأثبتوا وأذكروا الله كثير لعلكم تفلحون)[٥] .

بين الله فى هذه الآية أن الذكر وكيزة من ركائز الثبات أمام العدو .

وقد كان صلى الله عليه وسلم دائم الذكر والفكر متصلاً بالله لا يغيب عنه ، فكان يذكر الله فى كل حين . وهذه ميزة عظيمة للذكر ، فالمسلم يستطيع أن يذكر الله فى جميع حالاته ما عدا حالات مخصوصة[٦] ، فلذا يظل دائما موصولا بالله ـ عز وجل .

---

(١) منهاج المسلم لأبى بكر الجزائرى ص ٨٨ .
(٢) سورة العنكبوت : آية ٤٥ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٥٢ .
(٤) سورة الجمعة : آية ١٠ .
(٥) سورة الأنفال : آية ٤٥ .
(٦) وذلك عند قضاء الحاجة أو مواقعة أهله .

قال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم)[1] .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله)[2] رواه الترمذى وقال حديث حسن . وذلك لأن الذاكر لله والمتصل به تهون عليه المصائب ويحجزه ذكر الله عز وجل من مقارفة الآثام أو الضعف أمام شهوات النفس وأمام الهوى ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم (مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر كمثل الحى والميت)[3] رواه البخارى . وذلك أن القلوب تحي بالذكر كما يحيى العشب بالمطر .

كما أن للدعاء أثر عجيب فى القلوب وفى ثباتها خاصة عند الكرب ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء ، وكان يكثر من قول (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك)[4] .

وكان فى ميدان المعركة يطيل الدعاء ويستنزل النصر من الله - عزوجل - حتى أن أبابكر كان يشفق عليه مما يصيبه من الجهد فى الدعاء فيقول له - رضى الله عنه - (يانبى الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك)[5]

والدعاء سبب للنجاة فى الشدائد والخروج من الفتن ، قال تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء)[6]

وقال صلى الله عليه وسلم (من أكثر من الاستغفار جعل الله له فى كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)[7] .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٩١ .
(٢) رياض الصالحين ص ٥٤٢ برقم ١٤٣٦ .
(٣) صحيح البخارى جزء/ ٤ ص ١١٤ .
(٤) تفسير بن كثير جزء ٢ ص ٢٩٨ .
(٥) أنظر السيرة لابن هشام جزء / ٢ ص ٢٦٧ .
(٦) سورة النمل : آية ٦٢ .
(٧) تفسير بن كثير جزء/ ٤ ص ١٧٨ .

وللذكر والدعاء من الفوائد والفضائل مالا نستطيع حصره فى هذا البحث الصغير وقد ذكر ابن القيم فى كتابه الوابل الصيب من الكلم الطيب قريبا من المئة فائدة للذكر[1] وسنختار بعض هذه الفوائد . قال رحمه الله تعالى وفى الذكر اكثر من مائة فائدة :

١- انه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

٢- انه يرضى الرحمن عز وجل .

٣- انه يزيل الهم والغم عن القلب .

٤- انه يجلب للقلب الفرح والسرور .

٥- انه يقوى القلب والبدن .

٦- انه ينور الوجه والبدن .

٧- انه يجلب الرزق .

٨- انه يكسو الذاكر المهابة والحلاة والنضرة .

٩- انه يورث المحبة التى هى روح الاسلام وركن الدين ومدار السعادة والنجاه .

١٠- انه يورث المراقبة حتى يدخل الذاكر فى باب الاحسان فيعبد الله كأنه يراه .

١١- انه يورث الانابة .

١٢- انه يورث القرب من الله .

١٣- انه يفتح له بابا عظيما من المعرفة .

١٤- انه يورث الهيبة لربه عز وجل واجلاله .

١٥- انه يورث حياة القلب .

١٦- انه قوت القلب والروح .

---

(١) عن كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم - ص ٤٣-٤٥ - باختصار شديد ومن الأفضل أن ترجع اليه فى هذا الكتاب القيم ففيه الأدلة والأمثلة .

١٧- انه يورث جـــلاء القلب .

١٨- انه يحط الخطايا ويذهبهـــا .

١٩- انه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه .

٢٠- ان العبد اذ تعرف الى الله فى الرخاء عرفه فى الشدة .

٢١- انه سبب تنزيل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة .

٦- الفقـــه فى الشـــرع :

وهذه ركيزة مهمة لثبات المسلم أمام الابتلاء والفتن خاصة فتنة الشبهات الـــتى لا تدفع الا باليقين ومن كان بالله أعرف فهو له أشد خشية واليه اكثر انابة .

قال تعالى (انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ)[1] .

وقال تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه أيات محكمات هن أم الكتاب وآخـــــر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـه وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا وما يذكـــر الا أولوا الألباب[2]) .

يقول الامام الشاطبى - رحمه الله : (وحين خص أهل الزيغ باتباع المتشابه دل التخصيص على أن الراسخين فى العلم لا يتبعونه فاذا لا يتبعون الا المحكم وهو أم الكتاب ومعظمه[3])

وفى هذا من الهدى والثبات للراسخين فى العلم خاصة أمام الشبهات قدر كبير يكـون حاجزا لهم عن الزيغ والوقوع فى فتنة الشبهات .

---

(١) ســـورة فاطـر : آيـة ٢٨ .
(٢) ســـورة آل عمران : آيـة ٧ .
(٣) الاعتصام للشاطبى جزء/ ١ ص ٥٢١

ولذا قال صلى الله عليه وسلم (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد[١]) .

وقال تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك[٢] ..)

وبين سبحانه وتعالى فى كتابه أن العلماء هم الذين يعلمون الحق الذى يهدى الى صراط العزيز الحميد ، قال تعالى (ويرى الذين أوتو العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد[٣]) .

وقال تعالى مبينا أن العلماء هم أولئك العاملون المتقون لله عز وجل فقال (أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[٤]) .

وقد ذكر ابن عبد البر فى فضل العلم والعلماء فى كتابه جامع بيان العلم وفضله أحاديث كثيرة وروايات عن السلف أذكر منها مايلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة) وقال صلى الله عليه وسلم (العلم خير من العبادة وملاك لدين الورع) . وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه قال (لأن أجلس ساعة فافقه فى دينى أحب الى من أن أحيي ليلة الى الصباح) .

وعن الزهرى أنه قال (ما عبد الله بمثل الفقه) .

وعن الشافعى - رضى الله عنه - أنه يقول (لطلب العلم أفضل من الصلاة النافلة) .

وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه قال (من عمل فى غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح[٥]) .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .
(٢) سورة النساء : آية ١٦٢ .
(٣) سورة سبأ : آية ٦ .
(٤) سورة الزمر : آية ٩ .
(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٢٢-٣٥ باختصار .

فهذه هى فضائل العلم والفقه فى دين الله عز وجل وحرص السلف الصالح على تعلم العلم وتعليمه . فالعلم حفظ للمرء من الزيغ و من اتباع التشابه ومن الوقوع فى الشبهات والعلم مهم للداعية خاصة العلم بسير الأنبياء والدعاة والمصلحين فانه يزود الداعية بثروة طائلة من التجارب فى الدعوة ويطلعه على شتى الأساليب التى استخدمها من قبله فى هذا المضمار بل الأهم من ذلك هو معرفة سنن الله فى خلقه فيعرف طبيعة الدعوة وان الابتلاء سنة لابد منها للرسل والدعاة فعندما يواجه الابتلاء يكون على علم سابق بذلك فيكون بذلك مستعدا للصمود والوقوف أمام الباطل .

قال القرطبى فى تفسيره لقول تعالى (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ... (١)) أعلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنه سيصيبهم فيوطنوا أنفسهم عليه فيكون أبعد لهم من الجزع وفيه تعجيل ثواب الله تعالى على العزم وتوطين النفس (٢) .

والعلم يكشف للمسلم عن فطرته وأنه مركب من جاذبين متضادين جاذب يجذبه الى الرفيق الأعلى حيث حياة الايمان والاستقامة والزكاة والطهارة ، وجاذب يجذبه الى الأسفل الى الأرض الى الشهوات الى الحضيض الأسفل من البهيمة ، فهو مبتلى بين هذين الجاذبين فاما الى هذا أو الى ذاك فهذا يعطى الانسان القوة على نفسه وكبح جماحها والقوة للصمود أمام الشهوات فيكون العلم بذلك وقاية الله له من شر السقوط أمام الابتلاء وصدق الله (انما يخشى الله من عباده العلماء (٣)) .

(يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (٤)) .

وقال صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) رواه البخارى (٥) .

---

(١) سورة البقرة : ١٥٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جزء/ ٢ ص ١٧٣ .
(٣) سورة فاطر : آية ٢٨ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٦٩ .
(٥) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ص ١٩ .

٧- الزهـــد في الدنيـــا :

لابد للمسلم والداعية على وجه الخصوص حتى يتغلب على هواه ونفسه ويصمد فـي الابتلاء أن يكون زاهدا في الدنيا . ولسنا نقصد بالزهد الانقطاع عن الدنيا أو رهبانية النصارى ، كلا ولكن نقصد به عدم تعلق القلب بالدنيا ولذاتها وزخرفها . مع السعـي وراء الكسب الحلال بالطرق المشروعة ، وأداء الله فيما يكسب المرء .

فقد كان من الصحابة من يملك الأموال أمثال عثمان بن عفان ، وعبد الرحمـــن بن عوف وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين - ومع ذلك لم تشغلهم الدنيا عـــن اداء واجبات الدعوة والجهاد والبذل والعطاء في سبيل الله - عز وجل - بالمال والنفـــس فكانوا ينفقون في سبيل الله ويجهزون الجيوش[1] ويجاهدون مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم تشغلهم أموالهم ولا زروعهم ولا أبناؤهم ، ولم يقولوا كما قال المنافقـــون (شغلتنا أموالنا وأهلونا)[2] بل كانوا يقولون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لسرنـــا معك ما يتخلف عنا رجل واحد .

هذا هو الزهد في معناه الصحيح الذى يطلبه الاسلام وليس الزهد أن يقبع المسلـــم في بيته أو مسجده وينقطع الانقطاع التام عن الناس وعن الدنيا بأسرها فذلك هو الخور والضعف ، وما الدنيا الا مطية الآخرة وهى الوسيلة الى الوصول اليها .

اذن الزهد في مفهومه الصحيح مطلوب من المسلم حتى يتخفف من أثقال الدنيا وشدة وطأتها ولا تستولى على قلبه فتهلكه كما أهلكت من قبله ، وتحمله على المعـــاداه والموالاه من أجلها ومن ثم تحمله عندما يتعلق قلبه بها الى الاطمئنان اليها والأمـــن

---

(١) أنظر ما فعله عثمان - رضى الله عنه - في تجهيز جيش العسرة في السيرة لابن كثير جزء/ ٤ ص ٦ .

(٢) ســـورة الفتح : آيـــة ١١ .

من مكر الله ، (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون[١]) . وبالتالى يسقط أمـــام الابتلاء بالشبهات والشهوات والابتلاء أمام الأعداء ، فان من كانت الدنيا فى قلبه يضعف ويجبن أمام عدّوه (واذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين[٢]) .

لذا فعلى المسلم أن تكون دنياه فى يده وليست فى قلبه حتى يستطيـــع بذلها والابتعاد عنها ان تعارضت مع عقيدته أو دعوته . أما ان كانت فى قلبه فان عقيدته ودعوته لا تجد لها مكانا ومن ثم تكون فى اليد فتكون هى أول ما يبذل عندما يرى الابتلاءات والفتن ويسقط من هذه حاله ولا يثبت . ولننظر الى من كانـــت الدنيا فى يده كيف طرحها عند أول وهلة تعارضت مع عقيدته ذلك هو صهيـــب الرومى - رضى الله عنه - عندما أراد الهجرة فتبعه ملأ من قريش ومنعوه . قـال لهم هل لكم أن أعطيكم أواقى من ذهب وحلتين لى بمكة وتخلون سبيلى ثم دلّهـم على مكانها وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال (يا أبا يحـيى ربح البيـع) ثلاثا[٣] .

وقال تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار[٤]) .

---

(١) سورة الأعراف : آية ٩٩ .
(٢) سورة التوبة : آية ٨٦ .
(٣) انظر الحلية : جزء ١ ص ١٥٢
(٤) سورة النـور : آية ٣٧ .

٨ - الجهـــاد :

وللجهاد مع الابتلاء حالتان ، حالة يكون فيها ابتلاء بعينه ، وفيه يتمـــيز الخبيث من الطيب والمؤمن من المنافق ، والصادق الايمان ممن يدعى الايمـــان بلسانه فقط ، ولما يدخل الايمان فى قلبه ففى وقت الأمن والسلم يجامل المؤمنين الصادقين كثير من أدعياء الايمان وفى وقت الحرب والشدة ينغضون ويكشرون عـــن نفاقهم ، وكم من غزوة من غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فضحت وكشفت المنافقين ، وميزت الصادقين عنهم . قال تعالى (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)(١) .

وقال سبحانه فى شأن الأعراب (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان فى قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكـــم شيئا ان الله غفور رحيم ، انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابـــوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) . وقال سبحانـــه (ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة ، فاذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعـــة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم)(٢) .

وهنا يحتاج المسلم الى الركائز السابقة ليثبت فى هذا الابتلاء وليقـــوى على القيام بالجهاد .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤١ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١٤ ، ١٥ .
(٣) سورة محمد : آية ٢٠ ، ٢١ .

وحاله يكون الجهاد فيها دفع للبلاء والفتنة وركيزة مهمة للثبات والنجاح . قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[١] .

يقول سيد قطب - رحمه الله تعالى (وغاية القتال هى ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله عز وجل ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو مايشبهها كقوة الوضع الذى يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلط عليهم المغريات والمضلات والمفسدات وذلك بأن يعز دين الله عز وجل . ويقوى جانبه ويهابه أعداؤه فلا يجرؤ على التعرض للناس بالأذى والفتنة)[٢] .

وقال تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز)[٣] .

والجهاد فيه تمحيص وتربية للمؤمنين . فالنفس التى عركت الجهاد وعانت من مشاقة وكابدت متاعبه ستخرج نفسا زكية طاهرة من الذنوب والخطايا غير آبهة بزخرف الدنيا ومتاعها الزائل نفسا شجاعة لا تهاب أهل الباطل ووعيدهم . فلقد التقت معهم على أرض المعركة حيث السيوف تلمع والرؤوس تندر والدماء تهدر ، كما أن للجهاد أثر نفسى لا يغفل أبدا . وذلك أنه يشفى صدور المؤمنين ممن عذبوهم وفتنوهم فهذا الأثر ركيزة من ركائز الثبات على الابتلاء . قال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٣ .
(٢) فى ظلال القرآن : جزء ١ ص ٢٧٣ .
(٣) سورة الحج : آية ٤٠

قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم)[١] .

والجهاد فيه أمن من النفاق . ففى الحديث الصحيح (من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه مات على شعبه من النفاق)[٢] . وهو سبب الدخول الجنة . ففى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[٣] . وفيه أمن من دخول النار . ففى الحديث (عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله)[٤] . رواه الترمذى ، وقال حديث حسن .

ولو ذهبنا نستقرط فضائل الجهاد وأثره فى تحصين الأمة عن الفتن وفى نشر الدعوة وقوة الاسلام وعزة المسلمين وماينجم عن ذلك من دخول الناس فى دين الله أفواجا ، كما دخلوا فيه يوم أن جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم لطال بنا المقال فنكتفى بمسك الختام بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر الصابرين)[٥] .

---

(١) سورة التوبة : آية ١٤ - ١٥ .
(٢) مختصر صحيح مسلم - ص ٢٨٥ برقم ١٠٧٣ .
(٣) صحيح البخارى - جزء ٢ ص ١٤١ .
(٤) رياض الصالحين - ص ٥٠٣ .
(٥) سورة الصف : آية ١٠ - ١٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الخامس : أثار الابتلاء :

قال تعالى : (انا كل شئ خلقناه بقدر) (١) .

ان الله سبحانه وتعالى يقدر المقادير ويجرى الأسباب دقيقها وجليلها لحكم يعلمها سبحانه وتعالى قد يطلع العباد على بعضها وقد يخفيها عنهم - جل وعلا - قال تعالى : (وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٢) .

فما هي ياترى الأثار والحكم التي من أجلها قدر الله الابتلاء والفتن على عباده المؤمنين بل على صفوة عباده من المرسلين وجعل هذا الابتلاء سنة جارية .

اننا بالقاء نظرة على السيرة النبوية وسير الأنبياء عموما نجد أن لهذا الابتلاء فوائد عظيمة ومصالح جمة وحكم سامية وأن هذه الفوائد والمصالح لا يحصل عليها الا من صبر وثبت أو من رجع الى الله وأناب اليه - عز وجل - أما من أخذته له شك وريب أو من سقط وأنجرف وراءها فقد باء بالخسران العظيم في الدنيا والآخرة . قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير أطمأن به وان اصابته فتنة أنقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) (٣) .

---

(١) سورة القمر : آية ٤٩ .
(٢) سورة الدخان : آية ٣٨ - ٣٩ .
(٣) سورة الحج : آية ١١ .

فالمصائب كما قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ما جاءت لتهلكه وتقتله وانما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا فان ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدما له وعونا له وان أنقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر) [١] .

وقال أيضا في كتابه أغاثة اللهفان (ان ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل الا الله عز وجل) [٢] .

ويقول سيد قطب : (. . . حاشا لله أن يعذب المؤمنين بالابتلاء أو يؤذيهم بالفتنة ولكنه الاعداد الحقيقي لتحمل الأمانة) [٣] .

ولقد تعرض رسولنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين لصنوف الفتن والابتلاء ـ كما ذكرنا ذلك فيما سبق ـ فثبتوا وصمدوا صمود الجبال الشم أمام العواصف والأعاصير ونالهم من جراء هذه الابتلاءات والفتن فوائد ومصالح عظيمة ماكانت تقع لهم في حسبان وما كانوا ليحصلوا عليها بدون هذا الابتلاء لو كانت حياتهم هادئة هانئة مطمئنة . قال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [٤] .

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٣٥٧ .
(٢) اغاثة اللهفان جـ ٢ ، ص ١٨٩ .
(٣) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢١٦ .

وقال تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (١) .
فكانت العاقبة الحميدة لهم والدائرة على عدوهم ونالوا عز الدنيا ونعيم الآخرة ، وكانوا كما ذكر الله : (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وماكان قولهم الا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين . فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (٢) .

وفي هذا الفصل سوف نعرض ـ انشاء الله تعالى ـ لبعض هذه الآثار والفوائد التي عادت على الدعوة في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه لتمحيص المؤمنين وانتشار الاسلام ، وهي بالتالي ليست خاصة بذلك العصر بل ان كل دعوة صادقة في أى عصر ومصر ابتليت وثبت رجالها سينالون انشاء الله تعالى من الخير والأجر مثل ماناله سلفهم الصالح ـ رضي الله عنهم ـ فانه لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها . فالطريق واحد وان تباينت الأزمنة والأمكنة (وان هذا صراطي مستقيما فأتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (٣) .

والهدف واحد (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (٤) وسنة الله لا تتبدل ولا تتغير (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) (٥) .

---

(١) سورة النساء : آية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٤٦ - ١٤٨ .
(٣) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .
(٤) جزء من حديث رواه مسلم مختصر صحيح مسلم ، ص ٢٨٨ برقم ١٠٨٨ .
(٥) سورة الفتح : آية ٢٣ .

ومن هذه الآثار والفوائد :

١ - تمحيص المؤمنين وتربيتهم .

٢ - تحرير العبودية لله عز وجل .

٣ - تخليص الصف المسلم وتطهيره من أدعياء الايمان .

٤ - فتح مجالات للدعـــوة .

٥ - تكوين القاعدة الصلبة للدعوة .

٦ - رفع درجات المؤمنين وتكفير خطاياهم .

١ - تمحيص المؤمنين وتربيتهم :

الابتلاء والمحن والشدائد فيها تربية للمؤمنين ، وصقل لمعادنهم وتمحيـــص لما في قلوبهم . فهم كالذهب يصفى وينقى مما علق به من شوائب تكدر صفاءه وتقلـل جودته بالنار فيخرج ذهبا صافيا خالصا . وفي الحديث عنه - صلى الله عليه وسلم - (ان الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم مـــن يخرج كالذهب الأبريز . . . . .) (١) .

وفي الحديث (تعرض الفتن كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكـــت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض من الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ولا خر أسود مربادا كالكوز مجخيـــا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه) (٢) .

---

(١) سبق ذكر الحديث في ص ١١٤ من ركائز الثبات على الابتلاء .

(٢) " " " " " " " " " " " " .

فهذا القلب الذى عرضت عليه الفتن وأنكر أصبح أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض .فأى نعمة تعدلها هذه النعمة .

وقال تعالى معقبا على ماحدث في هزيمة المسلمين يوم أحد : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليتلي الله مافي صدوركم وليمحص مافي قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (١) . وقال سبحانه : (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (٢) .

ويقول الأستاذ سيد قطب حول هذه الآية (فليس كالمحنة محك يكشف مافي الصدور ويصهر مافي القلوب فينفى عنها الزيف والرياء ويكشفها على حقيقتها فهو الابتلاء والاختبار لمافي الصدور ليظهر على حقيقته وهو التطهير والتصفية فلا يبقى فيها دخل ولا زيف وهو التصحيح والتجلية للتصور فلا يبقى فيه غش ولا خلل) (٣) .

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : (ان النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغناء طغيانا وركونا الى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها الى الله والدار الآخرة فاذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان مايكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث اليه فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ولو تركه لغلبته حتى يكون فيها هلاكه) (٤) .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٤ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٤٢ .
(٣) في ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ١١٢ .
(٤) زاد المعاد ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ .

ويقول أيضا سيد قطب : (والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث وتستجيش كوامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب)[1].

فالمحن والشدائد تبني عود المؤمن حتى يشتد ويقوى ويصبح بذلك قادرا على تنفيذ ما أمر به وتبليغ ما أنيط به من أمانة فالمؤمن يصح ايمانه ويقوى بالشدائد والابتلاء كما تصح الأجسام بالعلل . وفي هذا يقول الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه ورب ما صحت الأجسام بالعلل

فتصفى نفسه من داء الشبهات والشهوات الفتاك ويخلص قلبه من النفاق والشك والريب ويقوى وتزداد صلته بربه عز وجل يلتمس منه النصر والعون ويخضع له ولا يخاف ، ولا يرهب الا منه ولا يرغب ولا يرجو الا هو ـ سبحانه وتعالى ـ ، أما من عاش مترفا ومنعما فانه لا يصمد أمام الهزات ، فلا يجتاز العوائق التي تعترض طريقه فانه سرعان ما يسقط عند أول عائق يعترضه في طريقه ، والمترفون ـ الا من عصم الله وقليل ما هم ـ دائما هم أعداء الدعوة وأعداء الحق وأدعياء الباطل . فالترف والنعمة تورث في النفوس الأشر والبطر والركون الى الدنيا وزينتها والاستئناس بها ونسيان الآخرة .

(الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)[2] . وتولد في نفوسهم كره الحق ودعاته لأنه ـ الحق ـ يتطلب منهم ترك بعض الشهوات وقد يسبب لهم شيئا من التعب وترك الراحة وهم لم يتعودوا ذلك في حياتهم المترفة المنعمة ولذلك كان المترفون في عصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم أول من يستأذن النبي ـ صلى الله

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن جزء ١ ص ٢٢٥

(٢) سورة التكاثر الآية ١ ـ ٢

عليه وسلم ـ في عدم الخروج للجهاد . قال تعالى : (واذا ما أنزلت سورة أن أمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله أستأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين)(١)

والمترفون هم أعداء الرسل وأول من يكفر بدعوتهم : (وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) (٢) .

وأهل الترفة دائما هم أهل الفسوق والعصيان فكانوا سببا للدمار والهلاك . وقال تعالى : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (٣) .

ولقد ذم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يعيش للدنيا وتشغله عن آخرته ووصفه بأبشع وصف فسماه عبدا لما يشغله عن الله ـ عز وجل ـ فقال في الحديث الصحيح : (تعس عبد الدرهم وعبد الديتار والقطيفة والخميصة ان أعطى رضي وان لم يعط لم يرض) (٤) .

ولذا لا يتوقع أن يتحمل هؤلاء المترفون أمانة أو يبلغوا دعوة فالدعوة تتطلب الجهد والجهاد وبذل النفس والنفيس وهذا لا يتحمله الا من صلب عوده وأشتد ساعده وصفت نفسه وتعالى على متع الحياة وشهواتها وعلى كيد الطغاة والعبيد . فما عاد الترغيب يلينه ولا الترهيب يفت في عضده . أو يثنيه عن دعوته وعقيدته ،

---

(١) سورة التوبة : آية ٨٦ .
(٢) سورة سبأ : آية ٣٤ - ٣٥ .
(٣) سورة الاسراء : آية ١٦ ، أنظر كتاب الفكر الماركسي دراسة تحليلية نقدية ص ٨٨ - ٩٠ .
(٤) صحيح البخارى ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

وقوى يقينه فنفى الشبهات وأخلص دينه لله رب العالمين .

وهذا لا يتحقق الا لمن ابتلى بالشدائد والمحن فصبر وهذا ما حدث للصفوة الأولى من أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- الذين كانوا كالذهب الذى أدخل النار فخرج كالذهب الأبريز فتحملوا الأمانة وبلغوا الدعوة ونشروا دين الله -عز وجل- في مشارق الأرض ومغاربها . وهذا ما سنبينه انشاء الله -في الأثر الخامس من هذا البحث وهو تكوين القاعدة الصلبة .

٢ - <u>تحرير العبودية لله عز وجل</u> :

من حكم ابتلاء الله لعباده المؤمنين بالسراء والضراء تحرير عبوديتهم لله -عز وجل- وذلك أن الله -عز وجل- يتطلب من عباده أن يعبدوه ويوحدوه ويلتجأوا اليه ويتوكلوا عليه دائما وأبدا في جميع حالاتهم في المنشط والمكره . وان من الناس من يعبد الله في حالة السراء فاذا أصابته الضراء يأس وقنط وأنقلب على وجهه . قال تعالى : (ومنهم من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) (١) ، (ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) (٢) ، (ومن الناس من يقول أمنا بالله فاذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ...) (٣) .

---

(١) سورة الحج : آية ١٠ - ١١ .
(٢) سورة التوبة : آية ٥٨ .
(٣) سورة العنكبوت : آية ١٠ .

ومن الناس من يعبد الله في حالة الشدة والفقر فاذا زالت الشدة وأقبلت المنحة والنعمة طغى وتجبر ونسى ماكان يدعو الله من قبل : (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار) (١) ، (ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) (٢) .

ان هذه الحالات المتذبذبة لا تمثل العبودية لله ـ عز وجل ـ ولا الخضوع الكامل المطلق له ـ عز وجل ـ والاستسلام والرضا بقدره سبحانه وتعالى . فلذا كان الابتلاء محك تحرير للعبودية لمن صبر في حالة الضراء وشكر في حالة السراء ، ولذلك يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (٣) .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (ان ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل الا الله ـ عزوجل ـ فمنها استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم اليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم) (٤) .

---

(١) سورة الزمر : آية ٨ .
(٢) سورة التوبة : آية ٧٥ ـ ٧٦ .
(٣) مختصر صحيح مسلم ، ص ٥٥٦ ، برقم ٢٠٩٢ .
(٤) اغاثة اللهفان ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

فالأوامر والنواهي تحقق هذه العبودية والرضى بقدر الله والصبر في البأساء والضراء والشكر في السراء تحقق كمال العبودية لله ـ عز وجل ـ والابتلاء الذى يصيب المؤمن في طريقه لتبليغ دعوة الله ـ عز وجل ـ وما يصيبه من العوائق وأشواك الطريق ، وتحول دونه ودون ابلاغ دعوته ومع ذلك فهو مصمم على ابلاغها بنفس راضية متطلعة الى الله ـ عز وجل ـ فهذا كمال للعبودية لله ـ عز وجل ـ فما الدعوة الا وسيلة لا غاية .. انها وسيلة لرضى الله ـ عز وجل ـ والله لا يكلفه الا بالبلاغ وأما النتيجة فهي على الله ـ عز وجل ـ فمن كمال العبودية لله ـ عز وجل ـ أن يدعو المؤمن الى الله ـ عز وجل ـ وغايته رضى الله ـ عز وجل ـ ، وليس النصر أو كثرة الاتباع ونجاح الدعوة فهذه الا وسائل لرضى ربه ـ عز وجل ـ ولذلك كانت الآيات خاصة في العهد المكي تتنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلن له أنه مبلغ فقط .

وقال تعالى : (وان ما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (١) ، (فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (٢) ، وينهاه الله عن الحزن واهلاك نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحزنه على من كفر ، قال تعالى : (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) (٣) ، (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (٤) ، (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (٥) .

---

(١) سورة الرعد : آية ٤٠ .
(٢) سورة الغاشية : آية ٢١ - ٢٢ .
(٣) سورة النحل : آية ١٢٧ .
(٤) سورة فاطر : آية ٨ .
(٥) سورة الكهف : آية ٦ .

بل عاتبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم أحد يوم أن دعا على كفار قريش ، وقد شج وجهه وسال الدم منه ووقع لشقه وكسرت رباعيته بقوله جل وعلا : (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) (١) .

ان في الصبر على الباطل وعلى رؤيته منتصرا منتفخا له السيادة والقيادة بينما أهل الحق والايمان في ضعف وفقر وشدة ان في هذا لكمال العبودية لله ـ عزوجل ـ وتحريرها لله ـ عز وجل ـ فلا يخالطها حب لنصر أو حب أخذ الثار أو حب منفعة في الدعوة ، فقد خلصت نفس الداعية لله ـ عز وجل ـ بعد هذه الشدة والمحنة والصبر عليها . وقد ابتلا الله عباده بزينة الحياة الدنيا وزخرفها وشهواتها وجعل فيهم الدافع اليها . قال تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) (٢) . وقال تعالى : (انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) (٣) .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا وأتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء) . فلا تتحقق العبودية الا بالصبر عن هذه الشهوات (٤) وعدم الوقوع الا فيما أباحه الله منها .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٢٨ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٤ .
(٣) سورة الكهف : آية ٧ .
(٤) مختصر صحيح مسلم ، ص ٥٥٠ برقم ٢٠٦٨ .

وما الأوامر والنواهي الا لتحقيق هذه العبودية لله ـ عز وجل ـ . قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) .

وقد حقق نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه هذه العبودية لله ـ عز وجل ـ فقد صبروا على أذى الكفار وأنتصروا على شهواتهم ، فصبروا على الحصار الاقتصادي ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، وصبروا على الباطل وانتفاخه يوم أحد ، وصمدوا أمام الأحزاب في الخندق وتعالوا على متع الحياة وشهواتها ، فكانوا بذلك أكمل الناس عبادة وأحسنهم خلقا . فأستحقوا بذلك ـ رضي الله عنهم ـ (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (٢) .

٣ ـ <u>تخليص الصف المؤمن وتطهيره من أدعياء الايمان</u> :

الفتنة والابتلاء هي التي تظهر الانسان على حقيقته وتعريه من كل لبس ومن كل لباس كان يتستر به فتبين الصادق من الكاذب والغث من السمين والأصيل من الدخيل ، فكثير من الناس يدخل في الدعوة ويؤمن بها ويدخل في عداد المؤمنين وليس هدفه الايمان ، ولا همه الدعوة ، وانما دخل لغرض من الأغراض ولمصلحة من المصالح ، اما مجاملة أو لنيل غنم أو اتقاء غرم أو غيرها من الأغراض المتعددة .

ولو بقيت الدعوة بدون غربلة ولا تصفية لهؤلاء لاختلط الحابل بالنابل والخبيث

---

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦ ـ ٥٨ .
(٢) سورة البينة : آية ٨ .

بالطيب ، وفي هذا من الاضرار بالدعوة وحدوث الخلخلة والبلبلة في الصف المسلم مالا يعلمه الا الله الا الله ، فأقتضت حكمة العليم الحكيم أن تأتي الشدائد والمحن والهزات لتصفي ولتغربل وتخرج الصادق على حقيقته وتخرج الكاذب على حقيقته فتبين بذلك أدعياء الايمان من المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمتسترين بالايمان لتحقيق هدف من أهدافهم الخبيثة فتكون هذه الهزات بمثابة النار يتميز بها الذهب الزائف من الذهب الخالص . قال تعالى : (ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) (١) . قال ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية (أى لابد أن يعقد شيئا من المحنة يظهر فيه ويفضح بها عدوه ويعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر) (٢) .

وقال تعالى : (وما أصابكم يوم ألتقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم والله أعلم بمايكتمون) (٣) .

يقول سيد قطب : (وهو يشير في هذه الآية الى موقف عبد الله بن أبي سلول ومن معهم ويسميهم " الذين نافقوا " وقد كشفهم الله في هذه الموقعة وميز الصف الاسلامي منهم) (٤) .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٧٩ .
(٢) تفسير بن كثير ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٦٧ - ١٦٨ .
(٤) في ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٤١ .

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : (انهم ـ أى المؤمنون ـ لو كانوا دائما منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول فانه أنما ينضاف الى من له الغلبة والعزة) (١) .

وقال الشاعر : جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقي

ولقد تعرضت الدعوة الاسلامية في مكة في أول عهدها بل عند أول اعلانها للأذى والابتلاء فلم يقدم على هذه الدعوة وينضم اليها ويؤمن بها الا من كان فيه من القوة والشجاعة والصبر والتحمل وصلابة العود مايجعله يتحمل هذا الأذى وهذه الفتنة . فلم يكن يد خلها لنيل مغنم . فما كانت تقسم الغنائم انذاك الا غنائم (صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة) (٢) . فما كان الدافع حينئذ الجاه ، أو المال ،أوأى مصلحة من مصالح الأرض بل كان الأذى والحرمان والمقاطعة والتجويع والتخذيل والاستهزاء .

فكان دافع من يد خل الدعوة حب الدعوة ورسول الدعوة واله الدعوة وجزاء ذلك الجنة فتكونت بذلك العصبة الأولى من الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم عصبة مؤمنة بالله ربا ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم رسولا .

ولم يد خل بين صفوفهم ضعاف الايمان ولا أهل الريب والشك ، والذين في قلوبهم مرض ، ولما هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة تكونت الدولة الاسلامية ، وبدأت صراعها ـ كدولة ذات كيان ـ مع الوثنية وأنتصرت عليها في أول لقاء لها ـ وذلك في بدر الكبرى ـ فعزت تلك الدولة وأصبحت مرهوبة الجانب وتحددت معالمها ،

---

(١) اغاثة اللهفان ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٢ ،ص ٤٩ .

وأتضحت سماتها ، ولما رأى بعض من لم يؤمن من مشركي المدينة أن هذا الأمر قد توجه ، وأن ليس له من حيلة لدفعه أو مقاومته فدخل هذا الصنف ممن لا يريد الاسلام ولا رسول الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المسلمين وأعلن اسلامه ظاهرا وظل يكيد للمسلمين في الباطن . وكثر هذا الصنف من المنافقين والذين في قلوبهم مرض . فجاءت معركة أحد لتفضح وتهتك ستر هؤلاء وتصفهم بالذين نافقوا وتصفهم بأنهم للكفر أقرب منهم للايمان ، وذلك ليحذر كيدهم المؤمنون الصادقون . ففي بداية المعركة عرف من المنافقين وضعاف الايمان ثلاثمائة رجل ، بل علم رأسهم رأس النفاق عبد الله بن أبي بسلن سلول على حقيقته التي كان يواريها قبل أحد . فقد انخزل عبد الله بن أبي بثلث الجيش .

قال ابن اسحاق : (فرجع بمن أتبعه من قومه من أهل النفاق والريب) (١) فلما صنع ما صنع يوم أحد وأخزاه الله . قام يقول ماكان يقول من قبل ـ وانى له ذلك فقد انكشف أمره ووضح نفاقه ـ فلما رأه المسلمون أخذوا بثيابه من نواحيه وقالوا أجلس أى عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت (٢) .

٤ ـ <u>فتح مجالات للدعوة</u> :

العوائق التي تصيب الدعوة في أول تكوينها تجعل الدعاة يفكرون في نقل الدعوة الى محيط آخر غير محيطها الذى تعثرت فيه ولم يستجب لها . وهذا يكون فيه نشر للدعوة وفتح مجالات لها أوسع وأرحب ووصول الدعوة الى أماكن ماكانت لتصل

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٨ .
(٢) أنظر السيرة لابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٥٧ .

اليها لو لم يهيئ الله أسبابها من الابتلاء والفتنة التى تصيب الدعوة والدعاة . فقد وصلت الدعوة الاسلامية في أوائل عهدها في مكة الى الحبشة وذلك من خـــــلال الهجرتين الأولى والثانية . وكان من نتائجها اسلام النجاشي - رضي الله عنه - . ولا شك أنه أسلم باسلامه جم غفير من أهل الحبشة .

كما أن تجمع قريش ووثوبها على كل من أسلم من المستضعفين تعذبه وتفتنه عن دينه . لابد أن يتناقل الركبان هذه الأخبار ليتحدثوا بها ويذكرونها لمن يقدمون عليهم . وفي هذا نقل لخبر الدعوة وسماع الكثيرين عنها ماكانوا ليسمعوا شيئا عنها لولا حدوث هذا الاضطهاد والتعذيب للمستضعفين من المؤمنين . كما أن في صبر المؤمنين على هذه الشدائد والمحن تدعو ذوى العقول للتفكير في أمر هؤلاء وتجلية أمرهم على الحقيقة ، وأنه لابد أن يكونوا على الحق . وأن هذا الحق أغلى مـــن راحتهم ومن أموالهم وأنفسهم فلماذا هم أنفسهم لا يتمسكون به لينالوا مثل ماناله أولئك .

يقول سيد قطب - رحمه الله - حول هذا المعنى : (ان التجارب والابتلاءات تعلم الدعاة كيف يسيرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور ، والذى يقع غالبا أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات حتى اذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب الدعوات وهم ثابتون على دعوتهم ماضون في طريقهم قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يسك أصحاب الدعوة على دعوتهم على الرغم من التضحيات والآلام الا أن في هذه الدعوة ماهو أغلى مما يضحون به وأثمن وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ماهو هذا العنصر الغالي الثمين الذى يرجح كل أعراض الحياة ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة وعندئذ يدخل المتفرجون

أفواجا في هذه العقيدة بعد طول التفرج على الصراع)[1] .

وكان معاذ بن جبل في المدينة قبل هجرة الرسول يقص أخبار الذين عذبوا في سبيل الله مما مهد الطريق أمام الأنصار للدخول في الاسلام حتى أسلمت قبيلتا الأوس والخزرج ، لما أراد الله بهم من الخير والفلاح فكان بذلك الحدث العظيم الذى غير وجه التاريخ ومكن الله به للاسلام والمسلمين وهو هجرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من مكة الى المدينة وتكوين الدولة الاسلامية ثم استمر الصراع مع قريش فكان اللقاء الأول في بدر ومانتج عنه من سماع القبائل المجاورة بل والبعيدة بأنباء النصر للمسلمين .

بل ليس خبر النصر هو المهم انما المهم أن علمت تلك القبائل أنه تكون للاسلام والمسلمين دولة ذات سيادة وقيادة فكان لهذا أثره البالغ في اسلام الكثيرين من القبائل .

وهكذا في جميع غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسراياه ينقل خبر الدعوة في أرجاء الجزيرة مدويا ومعلنا عن نفسه دون أن تنقله أجهزة الاعلام بوسائلها المختلفة .

وعندما اشتد الموقف بالمسلمين وأشتدت المحنة في أعظم ابتلاء واجهه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وذلك يوم الأحزاب يوم أن تحزبت قبائل العرب وقبائل اليهود على استئصال شأفة الاسلام والمسلمين . بدأت المجالات تفتح امام

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ .

الدعوة الاسلامية ، وبدأت البشريات من الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالفتوح ليس في الجزيرة فحسب وانما في بلدان فارس والروم . ففي الحديث عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : لما كان حين أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول فشكونا ذلك الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رآها أخذ المعول وقال : بسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله أني لأبصر قصورها الحمر ان شاء الله ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله اني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله اني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة) (١) .

وكان من الآثار الحميدة لهذه المحنة أن دمر الله يهود بني قريظة ، ووقى المسلمين شرورهم ومكائدهم التي لا تفتأ تكال للمسلمين يوم بعد يوم ، كما أيقنت قريش بل جميع العرب أن لا طائل وراء حرب المسلمين ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أجلى الله هذه المحنة وعادت قريش ومن معها من العرب تجر أذيال الخيبة والهزيمة (الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم) (٢) .

فكان بعد ذلك الفتح المبين فتح الحديبية وفتح خيبر ثم الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة ثم المسير الى بلاد الروم وفارس كل هذا حدث بعد الفتنة والابتلاء

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ٣ ، ص ١٩٤ .
(٢) صحيح البخاري ، جـ ٣ ، ص ٣٣ .

والشدائد والمحن والتمحيص للمؤمنين ، فالنصر غالي الثمن لا يؤتاه الا من يستحقه والنصر الا يأتي الا بعد الشدة والابتلاء كما أن النور لا يأتي الا بعد ظلمة الليل البهيم .

وصدق الله حيث يقول : (حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) (١) .

٥ - تكوين القاعدة الصلبة :

من خصائص هذا الدين أنه يقوم على جهد البشر (٢) . وليس بكلمة كن الالهية التي قال الله فيها : (انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (٣) فالله قادر على كل شيء ، ولكن اقتضته حكمته أن هذا الدين يقوم على جهد البشر ويقوى بقوة حملته وتضحياتهم ويضعف بضعفهم وركونهم الى الحياة الدنيا . (ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٤) .

ولذلك اقتضت حكمة العليم الخبير تربية العصبة المؤمنة والرعيل الأول من الصحابة بالابتلاء والشدة ليكون منهم جل وعلا حفظة لدينه وأمناء على عقيدة السماء وقاعدة صلبة يقوم عليها الاسلام ويثبت عند ما تهب الرياح وتشتد العواصف والأعاصير .

فنال الرعيل الأول الذين أمنوا في مكة وسبقوا الى الاسلام من البلاء والشدة

---

(١) سورة يوسف : آية ١١٠ .
(٢) أنظر كتاب هذا الدين لسيد قطب فصل منهج للبشر .
(٣) سورة النحل : آية ٤٠ .
(٤) سورة الرعد : آية ١١ .

مالم ينلهم غيرهم ممن أمن بعد انتصار الدعوة ونشرها ، ولذلك استحق هؤلاء الثناء من الله ـ عز وجل ـ ومن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفضيلهم على غيرهم ممن لم يؤذ ، وينالهم ما نالهم .

قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) (١) . قال تعالى : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) (٢) .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخالد بن الوليد وهو من هو سيف الله المسلول ـ رضي الله عنه ـ لكنه كان ممن تأخر اسلامه . في الحديث الذى رواه أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف شيء . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (دعو لي أصحابي أو أصيحابي فان أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه) (٣) .

ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقدر لذلك الرعيل الأول قدره ويعرف له مكانته وسابقته للاسلام ويعده اعدادا خاصا ليكون قاعدة الاسلام ونواته

---

(١) سورة التوبة : آية ١٠٠ .
(٢) سورة الحديد : آية ١٠ .
(٣) سيرة أعلام النبلاء . قال المحقق (أخرجه مسلم ـ ٢٥٤٠) ولم أجده في مسلم . وقال الألباني (صحيح) صحيح الجامع الصغير ، جـ ٣ ، ص ١٤٦ برقم ٣٣٨٠ .

ومادته . فهو الرعيل الذى أسلم يوم أن كان الاسلام غريبا . فطرح موروثاته الجاهلية التي خالطت نفسه وقلبه . عند عتبة الاسلام الأولى ، وهو الذى دخل في الاسلام يوم أن كان الداخل فيه يعتبر صابئا ومتبعا لساحر أو شاعر أو مجنون . فيتعرض بذلك للسخرية والاستهزاء والفتنة والابتلاء .

ان هذا الرعيل هو الذى تربى على المحن والشدائد منذ أن أعلن اسلامه فتربى في رمضاء مكة حيث يكتوى بلهيبها عند اشتداد الظهيرة وتربى في الشعب حيث الحصار والمقاطعة والتجويع . وهو الذى هاجر وترك أهله وماله ووطنه وهو الذى تربى في أحد حيث الهزيمة وقتل الأبناء والأصحاب وانتفاخ الباطل بنصره الزائف ووقوفه يصرخ بأعلى صوته أعلى هبل وهو الذى تعرض للغدر والخيانة من الوثنية العربية الضاربة الأطناب في الجزيرة في بئر معونة ويوم الرجيع وهو الجيل الذى تحزبت حوله الأحزاب من يهود وعرب ورموهم عن قوس واحدة للاستئصال والابادة بين الأطفال والنساء . ان تلك العصبة المؤمنة السابقة للاسلام تعرضت لشتى المحن ولصنوف الأذى . ليصلب عودها وتقوى عزيمتها ويسقط من به ضعف ووهن عند أول الطريق فلا يقام البنيان الا على أساس متين لا خلخلة فيه ولا ضعف . حتى تكونت للاسلام من خلال هذه التربية الطويلة والعناية الألهية قاعدة صلبة قام عليها الاسلام قلوبهم على أبيض مثل الصفا لا تضرهم فتنة مادامت السموات والأرض ، كما أن الأنصار رضي الله عنهم وان كانوا لم يتعرضوا للأذى مثل ما تعرض له السابقون من المهاجرين في مكة الا أنهم ما دخلوا في هذا الاسلام الا وهم يعلمون قيمته وحقيقته فلم يد خلوا فيه لنيل مغنم أو اتقاء مغرم لكنهم يعلمون أنهم يد خلولهم في هذا الدين ستضربهم العرب عن قوس واحدة فكانوا يعلمون ماسيد فعونه ثمنا لهذا الايمان ، فكانوا - رضي الله عنهم - على استعداد لتحمل هذه الضربات . يشهد لذلك ماورد في السيرة

من أن العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ـ رضي الله عنه ـ يوم العقبة الثانية قال : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الاشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : " الجنة " . قالوا : أبسط يدك فبسط يده فبايعوه (١) .

فكانوا ـ رضي الله عنهم ـ يعلمون ماسيصيبهم من هذه البيعة فلم يريدوا منها ملكا أو نصرا أو استفتاح على قوم كما كان اليهود يستفتحون بذلك عليهم (٢) . فضلا عن أنهم أووا ونصروا كما أنهم أيضا قد شاركوا اخوانهم المهاجرين في الابتلاء والمحن الذى نالهم بعد في المدينة بعد الهجرة .

ان هذه القاعدة الصلبة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هي التى حفظ الله بها دينه وبلغ بها رسالة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي التى وقفت صامدة ثابتة ضد الهزات التي عرضت للاسلام خاصة بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهي التي تعيد ترتيب الأمة ورأب الصدع بعد حدوث أى خلخلة تقع في الصف المسلم .

---

(١) السيرة لابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) وذلك أن اليهود في المدينة كانوا يقولون لهم ان نبيا قرب زمانه نؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وارم .

انها الحارس الأمين بعد الله ـ عز وجل ـ لهذه العقيدة ولهذه الأمة .

ولنا أن نتصور ذلك جليا واضحا لنرى حكمة العزيز الحكيم في رعايته لهـــذا الجيل الفريد وذلك بعد أن حدثت قاصمة الظهر بوفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولحوقه بالرفيق الأعلى ، لقد كان هذا الحدث قاصمة الظهر كما سماها ابن العربي (١) فهاج كثير من الناس وماج عند ما سمع هذا النبأ فقد كان الكثير منهم بحكم حبهم لـــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والفتهم له ماكان يصدق ذلك الخبر حتى أن عمر بن الخطـاب وهو من هو انه الفاروق ـ رضي الله تعالى عنه ـ لم يصدق هذا النبأ عن أبي هريـــــرة قال لما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قام عمر يخطب الناس ويقول : ان رسول الله لا يموت حتى تفنى المنافقين (٢) . فكادت الأقدام أن تزل بهذا المصاب الجلل الى أن قام أبو بكر رضي الله عنه وخطب الناس وقال : (أيها الناس مـــن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآيـــة نزلت حتى تلاها أبوبكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فانما هي في أفواههم .

وقال أبو هريرة قال عمر فوالله ماهو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حـــتى وقعت الى الأرض ماتحملني رجلاى وعرفت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قـــد

---

(١) وذلك في كتابه العواصم من القواصم .
(٢) السيرة لابن كثير ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ .

مـــات(١) .

ولنعد الى سنة ثلاث من الهجرة حيث أحد وما حدث فيها من بلاء وتمحيـــص للمؤمنين ألا ترى أن الصحابة يجنون ثمار هذا البلاء سنة عشر من الهجرة ، حيـــث هذا المصاب العظيم الذى كادت تزل فيه أقدامهم فأجتازوا هذه المحنة ثباتا وصبرا انهم هم الذين سمعوا هذه الآيات تعاتبهم على مابد رمنهم يوم أحد يوم أن الـقـــى بعضهم السلاح بعد أن سمع ابن قمئة يصرخ ان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قـــد قتل . فجاءت هذه الآيات تعاتبهم وتعلن لهم أن العقيدة لا تعنى التعلق بشخص محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليواصلوا السير والنهج الذى سار عليه محمد ـ صلـــى الله عليه وسلم ـ ورسمه لهم .

فما هي الا أن سمعوا هذه الآيات تتلى اليوم في هذه المحنة العصيبة حـتى تذكروا الماضي وماحدث لهم قبل سبع سنين في أحد . فعرفوا الحق ولزموه وثبتهـم الله في هذه المصيبة العظيمة بمحنة أحد فسبحان من يقدر الأمور ويعلم الســـــر وأخفى .

وبعد أن اجتازت العصبة المؤمنة في المدينة هذه المحنة العظيمة وتخطتهـا بسلام بدأت محنة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي محنة اختيار الخليفة وممـــن يكون من الأنصار أهل الدار وأهل السابقة أم من المهاجرين القرشيين قوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعشيرته فأجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون فيمـــا بينهم يقولون منا أمير ومن قريش أمير وأختلفت وجهات ، وكاد يقع الشر بينهم الى أن

---

(١) السيرة لابن هشام ، جـ ٤ ، ص ٣٣٥ .

جاء أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وبينا فضل الأنصار وسابقتهم وأحقية المهاجرين بهذا الأمر منهم ومكانتهم في العرب وذكروا لهم حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذلك (قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم) وقام بشير بن سعد الأنصاري - رضي الله عنه - بعد أن كثر الكلام بين المهاجرين والأنصار فقال : (يا معشر الأنصار انا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة هذا الدين ما أردنا به الا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضا فان الله ولي النعمة علينا بذلك ألا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا فأتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم) (١) عندها رضي الأنصار وقالوا نحن الوزراء وأنتم الأمراء فبايع عمر أبا بكر ثم بايع سائر الصحابة من المهاجرين والأنصار وحسم هذا الأمر في أقل من يوم ولو وقع فيه الاختلاف لوقع في ذلك شر كثير لربما أخر امتداد نشر الدعوة قرونا طويلة .

ولكن بتقدير الله - عز وجل - الذي يأبى الا أن يتم نوره - حيث هيأ لذلك الجيل من التربية والتمحيص ما يجعله ينفض يديه من كل متع الحياة الدنيا وحطامها ويعلق قلبه بربه - عز وجل - وهذا يتضح لنا من كلام بشير بن سعد رضي الله عنه. ثم استسلام الأنصار - رضي الله عنهم - ومبايعتهم لأبي بكر - رضي الله عنه - بعد أن تبين له أحقية قريش عليهم في هذا الأمر وليست بيعة فقط وينتهي أمرهم ، لكنهم يظلون مساندين لاخوانهم المهاجرين متكاتفين معهم . ويتضح هذا من قولهم نحن

---

(١) أنظر تاريخ الطبري ، مجلد ٣ ، ص ٢٢١ ، وأنظر الكامل لابن الأثير ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٤ .

الوزراء وأنتم الأمراء ، فأستقرت المدينة بذلك وأطمأنت وعادت وحدة متماسكة مترابطة كما هي عليه في عهد نبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما حالة بقية أرجاء الجزيرة العربية ـ ماعدا مكة ـ والتي لم يمضى على اسلامها الا قريبا من العامين ، وما كان اسلام الكثيرين فيها عن اقتناع ولكن عندما بهرهم الاسلام بضوئه الساطع ودهمهم في بلادهم لم يجدوا مفرا الا أن يعلنوا اسلامهم طائعين أو مكرهين . وبعضهم أسلم متابعة لقومه حين أسلموا والبعض أسلم طمعا في الغنائم التي كان يقسمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المسلمين ويعطي المؤلفة قلوبهم منها ويقول أحدهم : جئتكم من عند من لا يخشى الفقر . ولا يعني هذا عدم وجود أناس أسلموا وصدقوا في اسلامهم لكن عامين لم تكن كافية لتمحيصهم وتربيتهم . لذا سقطوا عند أول هزة .

فما هي الا أن دوى خبر موت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أرجاء الجزيرة وتناقلت الركبان ذلك الخبر ـ ألا أن محمدا قد مات ـ حتى بدأت الهزات والمحن وبدات الفتن كقطع الليل المظلم وهاجت الجزيرة العربية وماجت سلسلة من الارتدادات وسلسلة من التنبوءات (١) وسلسلة من حلقات الغدر والخيانة من العرب المتربصين الذين كان اسلامهم على مضض ونجم النفاق وأشرأبت اليهود والنصارى ، وتنفس الصعداء من كان كارها لهذا الدين ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعادت الجاهلية الجهلاء والضلالة العمياء تعم الجزيرة بعد أن اختفت مظاهرها عامين أو أقل ولم يعد للجمعة مكان الا المدينة ومكة . قال ابن كثير : (فلما مات عظم الخطب وأشتد الحال ونجم النفاق بالمدينة وأرتد من أرتد من أحياء العرب وامتنع

---

(١) بدأت سلسلة التنبوء قبيل وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنها لم تقو وتشتد وينضم اليها الكثيرون من العرب الا بعد أن لحق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بربه عز وجل .

آخرون عن أداء الزكاة الى الصديق ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة) (١) وثبتت المدينة ومكة والطائف وسط هذا البحر المتلاطم الأمواج . قال ابن الأثير : (لما مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسير أبو بكر جيش أسامة ارتد العرب وتضرمت الأرض نارا وأرتدت كل قبيلة عامة أو خاصة الا قريشا وثقيفا) (٢) .

وأصبح المسلمون كما يصفهم عروة بن الزبير - رضي الله عنه - (كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم) (٣) . ومع هذه الحال العصيبة فقد ثبتت تلك العصبة المؤمنة في المدينة التي نالت من الأذى والابتلاء والتمحيص والتربية ما جعلها بحق قاعدة صلبة يتكئ عليها الاسلام ويقوم بنيانه مرة أخرى بعد أن تهدمت أركانه فلم تثبت لنفسها فقط وتعبد ربها في بلدها وتترك خوض هذا البحر المتلاطم الأمواج الذي لا تؤمن عاقبة خوضه كلا انها عقدت العزم أن لا يقر لها قرار ولا تركن الى راحة حتى تعود الأمور كما كانت عليه فأعلنت على لسان قائدها وخليفة نبيها - الذي كان أعظمها ثباتا وأعمقها ايمانا - اعلانها الذي دوى في أرجاء الجزيرة (والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونه الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقاتلتهم على منعها (٤) وقال رضي الله عنه أينقص الدين وأنا حي . وحققت هذه الكلمات منه - رضي الله عنه - فلقد جاهد المرتدين ، وأرسل البعوث وعقد الألوية فعقد - رضي الله عنه - بعد مجيء بعث أسامة - رضي الله عنه - أحد عشر لواء وسير كل لواء الى جهة من جهات المرتدين والمتنبئين والخارجين عن طاعة الله ورسوله فقاتلوهم حتى ردوهم الى الله (٥) - عز وجل - . يقول الأستاذ سيد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٦ ، ص ٣٠٤ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٦ ، ص ٣٠٤ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٦ ، ص ٣١١ .
(٥) أنظر البداية والنهاية ، جـ ٦ ، ص ٣١٤ .

قطب - رحمه الله - (فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرتجت الجزيرة المخلخلة وثبتت القاعدة الصلبة وأستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وتناسقها أن تقف في وجه التيار وأن ترده عن مجراه وأن تحوله للاسلام مرة أخرى) (١) . وظلت هذه القاعدة ثابتة صامدة أمام جميع الهزات والفتن تعيد الخارجين عن الحق وتلزمهم اياه الزاما وتأطرهم على الحق أطرا فهي التي حفظ الله بها دينه وبلغ بها رسالة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ففتحت ثلاثة أرباع الأرض في أقل من ربع قرن ونشرت فيها نور الاسلام وأخرجت من شاء الله من عباده العباد الى عباد رب العباد ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة .

وهي التي حفظ الله بها كتابه العزيز وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فوعتها وبلغتها لمن بعدها كما وعتها . كما سلمت هذه القاعدة من الهزات الفكرية التي أصابت كثيرا من الأمصار فأنتشرت فيها البدع ومحدثات الأمور ، وكانت منبعا لكثير من الفرق والطوائف المنحرفة عن منبع الاسلام العذب . فلقد كانت مدرسة أهل الحديث بالمدينة وشيوخها من الصحابة - رضي الله عنهم - الملتزمين بسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - الكارهين للرأى (٢) وماينتج عنه من أنحراف فكرى وعقائدى مركز اشعاع ينشر السنة ويقمع البدعة .

ولذلك كان القرن الذى عاش فيه هذا الجيل هو خير القرون . كما ورد في الحديث : عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - (أن رسول

---

(١) فقه الدعوة ، سيد قطب ، ص ٢٠٨ .

(٢) المقصود بالرأى هنا الرأى المبني على الشبهة والهوى لا الرأى المبني على الكتاب والسنة .

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (ان خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) . قال عمران فلا أدري أقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ... الحديث) (١) .

٦ - رفع درجات المؤمنين وتكفير خطاياهم وأتخاذ منهم شهداء :

هذا أثر عظيم وحكمة جليلة للابتلاء تعطي المؤمن الثقة والطمأنية والأمان والراحة النفسية فتجعله أكثر صبرا وثباتا وتدفعه الى التقدم الى الامام والعمل لدعوته مهما أشتد الظلام وأدلهمت الخطوب فما عليه الا العمل والله يأجره على قدر عمله ومشقته . فهو بين احدى الحسنيين اما النصر أو الشهادة والأجر والمثوبة وتكفير السيئات..

قال عز وجل : (ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون) (٢) .

وقال جل وعلا في التعقيب على ما أصاب المسلمين من قرح في أحد : (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين أمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين أمنوا

---

(١) مختصر صحيح مسلم ٤٦٤ برقم ١٧٤٣ .
(٢) سورة التوبة : آية ١٢٠-١٢١ .

ويمحق الكافرين) (١) .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (... ومنها (٢)أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده وليس بعد درجة الصديقية الا الشهادة وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء يراق دماؤهم في محبته ومرضاته ، ويؤثرون رضاه ومحبته على نفوسهم ولا سبيل الى نيل هذه الدرجة الا بتقدير الأسباب المفضية اليها من تسليط العدو) (٣) .

وقال سبحانه : (هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين) (٤) . وهذا الأجر والثواب وتكفير الخطايا والسيئات ليس خاصا بمن يؤذى في سبيل الله ـ وان كانوا أعلى درجة وأعظم ثوابا ـ لكنه عام لكل من ابتلي بشيء من أقدار الله المؤلمة من فقر ومرض وخوف أو فقد حبيب وغيره لكن شريطة الصبر والاحتساب . قال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (٥) .

وسنقتطف من كتاب رياض الصالحين بعض الأحاديث عن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي فيها البشرى والطمأنينة والراحة النفسية لكل من أبتلي فصبر .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٠ - ١٤١ .
(٢) أى من حكم الابتلاء .
(٣) زاد المعاد ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ .
(٤) سورة التوبة : آية ٥٢ .
(٥) سورة البقرة : آية ١٥٥ - ١٥٧ .

١ - عن أبي يحيى صهيب بن سنان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم (عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لأحد الا لمؤمن . ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) . رواه مسلم .

٢ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة) . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

٣ - عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (اذا أراد الله بعبده خيرا عجل له العقوبة في الدنيا واذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة) . وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ان عظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

٤ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء اذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة) . رواه البخارى .

٥ - عن أنس رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول (ان الله عز وجل - قال : اذا أبتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته الجنة) يريد عينيه . رواه البخارى .

٦ - عن عائشة - رضي الله عنها - أنها سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله تعالى رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه الا ماكتب الله له الا كان له مثل أجر الشهيد) . رواه البخارى .

٧ - عن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما - :ألا أريك أمرأة من أهل الجنة ؟ فقلت بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : أني أصرع وأنني أتكشف فأدع الله لي قال : (ان شئت صبرت ولك الجنة وان شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت أصبر فقالت اني أتكشف فأدع الله أن لا أتكشف فدعا لها) . متفق عليه (١) .

هذا ما أعده الله سبحانه وتعالى ذو الجود والكرم ومن لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما لأهل البلاء في الدنيا ممن صبر وأحتسب أجره عند الله - عز وجل - حتى ان أهل العافية ليغبطونهم عند ما يعطون ثوابهم في الآخرة . ففي الحديث الذى رواه الترمذى : (أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم قرضت في الدنيا بالمقاريض) (٢) .

---

(١) رياض الصالحين ، باب الصبر ، ص ٢٤ .
(٢) سنن الترمذى ، جـ ٤ ، ص ٢٩ .

وقد أثرت هذه البشريات من الله ـ عز وجل ـ ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حتى أنهم ماعادوا يبالون بالسراء أو الضراء أو تؤثر في نفوسهم أو تنال منهم ـ رضي الله عنهم ـ يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : (ما أبالي على أى حال أصبحت أعلى ما أحب أم على ما أكره ذلك لأنني لا أدرى الخير فيما أحب أو فيما أكره) . رواه الامام أحمد في كتاب العلل (١) .

ومسك الختام في هذا البحث بل في البحث كله قوله جل وعلا : (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (٢) .

---

(١) رسالة المسترشدين ، ص ٥١ .
(٢) سورة الزمر : آية ١٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة :

وفي ختام هذا البحث أخرج منه بهذه النقاط التي لا أرى أني أحرزت فيها قصب السبق ولكني بعد معالجة هذا الموضوع والاطلاع على مصادره أصبحت عندي عين اليقين .

١ - ان طريق الدعوة طويل وشاق تكثر به العقبات ، وتحفه الأشواك . طريق لا يصمد فيه الا من صلب عوده وقوى يقينه . انه طريق يتساقط فيه ألو العزائم الخائرة والبصائر الضعيفة . انه طريق يحتاج الى زاد عظيم وزاده بكلمة جامعة هو الصلة بالله الصلة الدائمة لا صلة سويعات . انها صلة (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) .

٢ - ان الذين يتحاملون على الدعوة ويريدونها أن تحطمهم وتحقق لهم مآربهم ، انهم لن ينفعوا الدعوة بشيء بل هم ضرر على الدعوة ، فهم عند ما تتعارض مصلحة الدعوة ومصالحهم الشخصية يكون أول من يدفع ويطرح هو الدعوة .

٣ - ان العبرة في نجاح الدعوة ليست بعدد أفرادها ، ولكن بنوعيتهم ومدى صلابتهم وتضحيتهم فالكثرة التي لم تنل من التربية ما يصلب به عودها ويقوى به يقينها وبال على الدعوة . فالكثرة لا تغني شيئا اذا كانت غثاء كغثاء السيل .

٤ - ان الدعوة التي تولد على محك الشدائد وتصيبها الهزات التى تنفي عنهـــا الغث والخبيث فلا يلتصق بها أصحاب الأهواء ، وضعاف الايمان والمتحاملون والمجاملون ، تصفو على قاعدة صلبة تحميها وترد عنها كيد الكائدين .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض) (١) .

٥ - ان هذا البحث يحتاج الى من هو خير مني علما وفكرا ، وله باع طويل وتجربة في الدعوة . ليوفي هذا الموضوع حقه ، وليبحثه عن علم راسخ وتجربة واقعية يعيشها هو ليكون البحث أشمل وأكمل وأكثر فائدة . فهو بحث مهم جدير بالعناية والالتفات من ذوى الفكر والاختصاص في الدعوة . خاصة للدعاة في هذا العصر الذى فيه الفتن . كقطع الليل المظلم . أسأل الله أن يحقق ذلك انه سميع مجيب .

وفي الختام أتوجه الى الله بالشكر وأسأله أن يتقبله ويجعله في ميزان الحسنات يوم القيامة ، وأن يعفو ويغفر مافيه من الزلات والهفوات انه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على المرسلين .

** * **
** **
*

---

(١) سورة الرعد : آية ١٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مصـــادر البحـــث :

— القرآن الكريـــم .

كتب التفســـــير :

— الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطـــبى الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية .

— تفسير القرآن العظيم : للحافظ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل بن كثـير القرشى الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤هـ. دار المعرفة — بيروت ،طبـــع عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

— تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان : للشيخ عبد الرحمن بن ناصـــر السعدى — المؤسسة السعيدية بالرياض .

— فى ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب — دار المعرفة للطباعة والنشـــر بيروت — لبنـــان .

— صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم : للشيخ عبد الرحمن بـــن محمد الدوسرى — مكتبة دار الأرقم . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ الكويـــت .

كتب الحديث :

— صحيح البخارى بحاشية السندى : لأبى عبدالله بن اسماعيل البخارى دار المعارف للطباعة والنشر — بيروت — لبنان .

— مختصر صحيح مسلم : للامام أبى الحسين مسلم بن حجاج القشيرى النيسابورى اختصارالحافظ زكى الدين عبدالعظيم المنذرى . الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. المكتب الاسلامى .

— سنن الترمذى : للامام الحافظ أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، ٢٠٩ — ٨٧٩ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت.

— سنن أبى داود : للامام الحافظ المصنف المتقن أبى داود سليمان ابن الاشعث السجستانى الأزدى ٢ ٢ — ٢٧٥ ، مطبعة مصطفى أحمد صاحب — المكتبة التجارية بشارع محمد على بمصر .

— صحيح الجامع الصغير : للامام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ. تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى منشورات المكتب الاسلامى .

— رياض الصالحين : للامام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى . تحقيق وتخريج عبدالعزيز رباح ، وأحمد يوسف الدقاق . دار المأمون للتراث — دمشق ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م.

— فتح الباري شرح صحيح البخاري: للامام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض .

— صحيح مسلم بشرح النووي: للامام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ٦٣١ - ٦٧٦ دار احياء التراث العربي .

— دليل الفالحين شرح رياض الصالحين: لمحمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي . نشر وتوزيع ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض .

— جامع العلوم والحكم، شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: لزين الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي . توزيع ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض.

كتب السيرة :

— السيرة النبوية : للامام أ بى الفدا اسماعيل بن كثير . تحقيق مصطفى عبد الواحد . دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت — لبنان ١٣٩٦هـ - ١٩٧١م.

— سيرة النبى صلى الله عليه وسلم : لأبى محمد عبد الملك بن هشام. توزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد — الرياض .

— الروض الأنف : للفقيه المحدث أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلى ٥٠٨ هـ ١٨٥م. دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت - لبنان

— عيون الأثر : لأبى الفتح فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن يحيي بن سيد الناس الشافعى . دار الجيل - بيروت .

— سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد : تحقيق مصطفى عبد الواحد للامام محمد بن يوسف الصالحي الشامى — المتوفى سنة ٩٤٢ - القاهرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

— زاد المعاد فى هدى خير العباد : للامام ابن قيم الجوزيه . توزيع دار الباز للنشر والتوزيع — عباس أ حمد الباز - مكة المكرمة .

— مختصر سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) : للشيخ محمد بن عبد الوهاب . دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت — لبنان .

— نور اليقين في سيرة سيد المرسلين : المرحوم الشيخ محمد الخضرى . تحقيق الشيخ نايف العباس ، محمد الدين مستو . مؤسسة علوم القرآن - دمشق بيروت — ١٤٠٠ هـ. — ١٩٨٠م. الطبعة الثانية .

— السيرة النبوية : للسيد أبى الحسن على الحسين الندوى الناشر دار الشروق جده — الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م القاهرة الحديثة للطباعة .

— فقه السيرة : للشيخ محمد الغزالى . دار الكتب الحديثة . الطبعة السابعة .

— فقه السيرة : للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى . دار الفكر .

قصص الأنبياء :

— قصص الأنبياء : للامام أبى الفدا اسماعيل بن كثير . دار التراث العربى .

— النبوة والأنبياء : للشيخ محمد بن على الصابونى : الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م.

— مع الأنبياء فى القرآن : عفيف عبد الفتاح طباره : دار العلم للملايين بيروت - لبنان الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٢م.

التـــاريخ :

— تاريخ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك : لأبى جعفر محمد بن جريـــر الطبرى ٢٢٤ — ٣١٠هـ . دار سويدان - بيروت لبنان ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م

— الكامل فى التاريخ : للامام أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بـــن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير الجزرى . المتوفى ســـــنة ٦٣٠هـ. دار الفكر — بيروت ١٣٩٨٠ - ١٩٧٨م.

— فتوح البلدان : للامام أبى الحسن البلاذرى المتوفى ٢٧٩ - المكتبـــة التجارية بمصر .

— البداية والنهاية : للحافظ أبى الفدا اسماعيل بن كثير : الطبعـــة الثالثة ١٩٧٩م. مكتبة المعارف/بيروت .

— التاريخ الاسلامى : محمود شاكر . المكتب الاسلامى .

الاعـــلام :

— حلية الأولياء : حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبداللـــه الاصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠ — دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان.

— سير أعلام النبلاء : للامام شمس الدين أحمد بن عثمان الذهـــبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ. تحقيـــق : شعيب الأرنؤوط وحسين الأســـد مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى .

— الأعـــلام ، قاموس تراجم لأشهرالرجال والنساء : لخير الدين الزركلـــى الطبعة الثالثـــة .

كتـــب اللغـــة :

— لسان العرب : للامام أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظـــور الطبعة الثانية . دار بيروت للطباعة والنشـر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

— القاموس المحيـــط : لمجـــد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى .
الطبعة الثالثة : ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

— المفردات في غريب القرآن : للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى مكتبة الانجلـــو المصرية .

— المعجم الوسيط : ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، وحامـــــد عبد القادر ومحمد على النجار . مجمع اللغـــة .

كتـــب أخـــرى :

— العبوديـة : لشيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميـــــه الحرانى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ . المكتب الاسلامى - الطبعـــــة الخامسة .

— اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم : لابن تيميه : تحقيق محمد حامد الفقي . دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

— اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية ، ٦٩١ — ٦٥١ . تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة الرياض الحديثة — البطحاء — الرياض .

— الوابل الصيب من الكلم الطيب: لابن القيم . مكتبة السلام العالمية .

— روضة المحبين : لابن القيم . دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

— طريق الهجرتين : لابن القيم . دار الكتاب العربي . بيروت - لبنان . وباب السعادتين .

—

— عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : لابن القيم . دار العلوم الحديثة بيروت - لبنان .

— رسالة المسترشدين : لأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي البصري المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣هـ. تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة. الطبعة الثالثة . مكتبة المطبوعات الاسلامية .

— جامع بيان العلم وفضله : لأبي عمر يوسف بن عبدالبر . المتوفى سنة ٤٦٣هـ. دار الكتب العلمية . بيروت — لبينان .

— العواصم من القواصم : للقاضي أبي بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ ، تحقيق : محب الدين الخطيب . مكتبة أسامه بن زيد . بيروت - لبنان ١٣٩٩هـ. - ١٩٧٩م.

— الاعتصام : للامام أبى اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى الغرناطى . دار المعرفة . بيروت - لبنان ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

— طريق الدعوة فى ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب . جمع أحمد فائز مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

— فقة الدعوة : سيد قطب . اختيار وجمع أحمد حسن ، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى : ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

— هذا الدين : سيد قطب ، سلسلة تصدرها الجماعة الاسلامية .

— تذكرة الدعاة : للبهى الخولى : مكتبة الفلاح الطبعة السادسة ١٩٧٩م .

— مقارنة الأديان : للدكتور / أحمد شلبى - الطبعة السادسة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م .

— منهاج المسلم : لأبى بكر الجزائرى .

— بصائر للمسلم المعاصر : عبد الرحمن حبنكه الميدانى . دار القلم / دمشق .

— ظاهرة الردة : محمد حسن بريغش . مؤسسة الرسالة .

— الفكر الماركسى : للدكتور / صفوت حامد مبارك عالم الكتب .
دراسة تحليلية نقدية الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

— بنو اسرائيل فى القرآن : للدكتور محمد عبد السلام محمد . مكتبة الفلاح .

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات البحث : الصفحة

— المقدمة : أ — ل

— التمهيد : ١ — ٧

— تعريف الابتلاء والفتنة . ١

— الابتلاء سنة من سنن الله . ٣

الفصل الأول :

الابتلاء للرسل والمؤمنين قبل البعثة . ٨ — ٣٠

— نوح . ٩

— ابراهيم . ١٤

— موسى . ١٩

— عيسى . ٢٣

— أصحاب الأخدود . ٢٦

الفصل الثاني :

الابتلاء في العهد المكي . ٣١ — ٥٧

— مالقيه الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه . ٣٢ — ٤٦

— الحرب الدعائية ضد الرسول ودعوته . ٣٣

— المساومة وأنصاف الحلول . ٣٩

— الحرب الاقتصادية والمقاطعة الاجتماعية . ٤١

— الأذى البدني ٤٣

— محاولات الاغتيال ٤٥

الصفحـــة

— مالقيه المسلمون من أذى ٤٧ — ٥٧
— تمهيـــد : ٤٧
— أبو بكر الصديـق . ٥٠
— بلال بن رباح . ٥١
— خباب بن الأرت . ٥٣
— آل ياســـر . ٥٤
— أبو فكيهـة . ٥٥
— زنـــيره . ٥٥
— جارية بنى المؤمـل . ٥٥

الفصـل الثالـث :

الابتـلاء فى العهـد المدنى . ٥٨ — ٥٢
— تمهيـد : ٥٩
— تحويل القبلـــة . ٦٣
— سـرية عبد الله بن جحـش . ٦٤
— غـزوة أحـــد . ٦٥
— غـزوة الرجيـــع . ٧٢
— بئـر معونـة . ٧٥
— غـزوة الخنـدق . ٧٨

الفصل الرابـــع :

أنواع الابتلاء وركائـز الثبات عليه . ٩٣ — ١٤٣
— أنواع الابتلاء والفتـن . ٩٣ — ١١٣
— الابتـلاء بتسلـط الأعداء . ٩٤

الصفحة

- الابتلاء بالفقر والمرض . ٩٦
- الابتلاء بالنعم . ٩٩
- فتنة الشبهات والشهوات . ١٠٩
- ركائز الثبات على الابتلاء . ١١٤ — ١٤٣
- تقوى الله . ١١٦
- محبته . ١١٩
- الصبر . ١٢٤
- الصلاة . ١٢٨
- الذكر والدعاء . ١٣١
- الفقه في الشرع . ١٣٦
- الزهد في الدنيا . ١٣٩
- الجهاد في سبيل الله . ١٤١

الفصل الخامس :

آثار وحكم الابتلاء . ١٤٤ — ١٧٦

- تمهيد : ١٤٤
- تمحيص المؤمنين وتربيتهم . ١٤٧
- تحرير العبودية لله عز وجل . ١٥١
- تخليص الصف المسلم وتطهيره من أدعياء الايمان . ١٥٥
- فتح مجالات للدعوة . ١٥٨
- تكوين القاعدة الصلبة . ١٦٢
- رفع درجات المؤمنين وتكفير سيئاتهم . ١٧٢
- الخاتمة : ١٧٧
- المصادر : ١٧٩